الإهداء

الى أبناء الشمال الإفريقي خصوصاً وأبناء الأمة عموماً أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[1] .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[2].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[3].

أما بعد:

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الخامس (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) يتحدث عن دولة الموحدين، فيعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

(٣) سورة الاحزاب : الآية ٧٠،٧١.

ابن تومرت ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة، ويبين أعماله الظالمة والجائرة، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء وهتك الاعراض عند الموحدين، ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه. ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السنة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداءً من عبدالمؤمن بن علي الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووحد الشمال الإفريقي بقوة السلاح، والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبناءه واحفاده عليها من بعده، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأراك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام ٥٩١هـ فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها، والنتائج التي ترتبت عليها ويثني على المجهودات العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل إصلاح عقائد الموحدين، والاقتراب بهم من منهج أهل السنة والجماعة ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية، ويذكر الأسباب التي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الاضواء على الثورات التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين، وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات وماهي أسبابها وماهي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الإفريقي.

ويقف وقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين، فيشير إلى السنن الإلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

ويتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الإفريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارى، ودور المرينيين حكام المغرب

الأقصى في الوقوف مع مسلمي الأندلس. ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش، ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس، ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الإفريقي، ويتحدث عن أسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم ثم كيف انتزعه السعديون منهم، ويثني على أعمال السلطان عبدالملك السعدي الذي حقق نصراً عزيزاً على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام ٩٨٦هـ والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ويمضي بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على أسباب سقوطها ومجيء الإشراف العلويين لحكم المغرب الأقصى.

ويتعرض لدولة بني عبدالواد في المغرب الأوسط ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ويقف على أسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الأوسط من قبضة الإسبان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في إفريقية وأسباب قيامها، ونظام ولاية العهد عندهم، وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ويقف على أسباب سقوط الدولة الحفصية وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرّروا طرابلس من فرسان الدين يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه. وهدفي من هذا الكتاب :

١- بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة، وعقدية فاسدة.

٢- أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السنة والجماعة وتربية أبنائها

عليها حتى يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وإجماع العلماء الراسخين .

٣- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

٤- التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين .

٥- اثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

٦- كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الأصلاح وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام.

٧- بيان أن حركات الأصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة هي التي سارت وتسير على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

٨- بيان أن الذين كفّروا المسلمين، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم هم قادة في الفساد والدمار والإجرام.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: محمد بن تومرت ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني : البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني: ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول: عبدالمؤمن بن علي.

المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.

المبحث الثالث: أبويوسف يعقوب المنصور.

المبحث الرابع: الخليفة الموحدي أبو محمد عبدالله الناصر.

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين. ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مملكة غرناطة.

المبحث الثاني : دولة بني مرين .

المبحث الثالث: دولة بني عبدالواد.

المبحث الرابع: الدولة الحفصية.

ثم الخلاصة .

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب اخواني الذين اعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

إنه ولي ذلك والقادر عليه.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك،

"وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلاّبي

الفصل الأول

محمد بن تومرت

المبحث الأول

اسمه ونسبه، ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

أ- اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال بأنه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي، والبعض الآخر يجعل نسبه بربرياً صرفاً. والبعض الآخر يجعله نسباً مختلطاً بين البربر والعرب هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول[1].

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأنَّ لقبول دعوته، وإلى تمكنه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول صلى الله عليه

(١) انظر سقوط دولة الموحدين د. مراجع عقيله ص٣٦.

وسلم، حيث قال: (وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجّة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادّعاه وانتسب إليه، فلا دليل يقوم على بطلانه لأن الناس مصدّقون في أنسابهم"[١].

وقول ابن خلدون فيه نظر، لأن المؤرخين الإثبات والثقات اثبتوا أن محمد بن تومرت لايتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه[٢].

ووافق ابن خلدون من المعاصرين الدكتور عبدالمجيد النجار[٣] في صحّة نسب ابن تومرت إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم وادّعى أن صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد بن عبدالله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ماهو إلا نحلة باطلة، وثوب مستعار قصد ورائها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضاً شعاراً لامامته ورياسته[٤].

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه أن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة، والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج مايلي:

١- أنه لم يشتهر بين المؤرخين لاسيما علماء الأنساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي، وإنما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها، أو بتأثر بدعوة

---

(١) ابن خلدون – المقدمة ص٢٦.

(٢) انظر الذهبي سير أعلام النبلاء (٥٣٩/١٩).

(٣) انظر : تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت د. عبدالمجيد النجار ص٥٦.

(٤) انظر: عصر المرابطين والموحدين ص٥٥٧.

ابن تومرت[1].

٢- أن هذا الادعاء كان مألوفاً عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لاحظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

٣- ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند أتباعه إلا بعد أن ادّعى ذلك لحاجة في نفسه[2].

أما تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة، فمنهم من قال ٤٧٣هـ[3] ومنهم من قال، ٤٨٥هـ[4] ومنهم من قال ٤٦٩هـ ورجح الدكتور عبدالمجيد النجار أنه ولد سنة ٤٧٣هـ[5].

ولم تعطِ المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته، وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون: "وكان أهل بيته أهل نسك ورباط"[6]، كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد ابن تومرت وأخويه عيسى وعبدالعزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق، ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة"[7].

---

(١) من هؤلاء المؤرخين، أبوبكر الصنهاجي المعروف بالبيذق، وابن القطان، وغيرهم .

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص٥٥٨.

(٣) انظر: سقوط دولة الموحدين ص٣٦.

(٤) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان (٥٢/٥).

(٥) انظر : تجربة الأصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص٥٧.

(٦) ابن خلدون - العبر: (٢٢٦/٦).

(٧) ابن خلدون - المقدمة: ٥٠٦.

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلّم القرآن حفظاً ورسماً وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: (أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه... إلى أن يجاوزوا حدّ البلوغ إلى الشبيبة)[1].

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئاً من الفقه، لقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم منذ شبابه قال ابن خلدون: "وشبّ محمد هذا قارئاً للعلم، وكان يسمّى "آسفو" ومعناه الضياء لكثرة ماكان يسرج في القناديل بالمساجد لملازمتها"[2].

ب- رحلته في طلب العلم

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات مايفيده في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها.

فبدأت رحلته في عام ٥٠٠هـ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عاماً كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره.

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس

---

(١) ابن خلدون – المقدمة ص٥٠٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون (٢٢٦/٦).

حيث نزل بقرطبة[1] ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور[2].

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بحراً ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبدالله المازري، ثم قصد مصر على طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام[3].

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروساً وأخذ علماً من الشيخ أبي بكر الطرطوشي ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام وأداء الفريضة[4] وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها مايزيد على عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال، والأشاعرة وأخذ من كل مايخدم فكرته طرفاً قال ابن خلدون: (ودخل العراق، ولقي جلّة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً)[5].

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، وإلكيا الهراسي، والمبارك بن عبدالجبار، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالي (ت:٥٥٥) مبرزاً في علم أصول الدين والتصوف ومتبحراً في علم الكلام ووقع في اغلاط واخطاء قال الذهبي عن كتابه الإحياء: (أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا مافيه من آداب ورسوم، وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً

---

(١) البيان المغرب (٤٣٥/١).

(٢) نفس المصدر السابق: (٤٣٥/١).

(٣) انظر : تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت ص٥٩.

(٤) انظر : ابن خلدون (٢٢٦/٦).

(٥) ابن خلدون العبر (٢٢٦/٦).

نافعاً.

تدري ما العلم النافع؟ هو مأنزل به القرآن وفسره الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً، ولم يأت، ولم يأت نهي عنه قال عليه السلام: (من رغب عن سنتي فليس مني)[1]. فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، سنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، نعم ولم ينسَ الذهبي أن يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: "فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لاندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول"[2].

وقال الشيخ الطرطوشي[3] في رسالة له إلى ابن مظفر: (فأما ماذكرت من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وكان على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل "الإحياء"، عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولاخبير بمعرفتها، فسقط على أمِّ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم ٥٠٦٣، ومسلم رقم ١٤٠١.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/٣٤٠، ٣٤٦).

(٣) توفى عام ٥٢١هـ.

رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات"[١].

وأما شيخ الإسلام، ابن تيمية فقد أثنى على كتاب الإحياء قائلا بأن غالبه جيد وأن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه مواد مذمومة وفاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكر على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا أمرضه الشفا - يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة - وقال: "وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة. وفيه اشياء من أغاليط الصوفية وترّهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة وما هو أكثر مما يُردّ منه"[٢].

وقد كان يتعرض دائماً لآراء الغزالي في أكثر كتبه وينقد ماجاء فيها بأسلوب هادئ علمي وغالباً ماكان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث وإنه قد مات وصحيح البخاري على صدره[٣].

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وإن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد[٤] وإن ابن تومرت تأثر به وكأن ابن تومرت رجل متحرر من الجمود والتقليد ومتنور في أطروحته التغييرية.

ولابد من بيان أن الغزالي كان مضطرباً في منهجه العقدي ولم تكن مسائل

---

(١) سير اعلام النبلاء (٣٤١/١٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢١٠/٦).

(٣) فتاوى ابن تيمية (٥٥١/١٠-٥٥٢)، (٥٥/٦).

(٤) انظر تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت ص٦١.

العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأن ابن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بإلكيا الهراسي (ت ٥٠٤هـ/١١١٠م)، فقد كان عالما في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير، وله في التفسير كتاب (أحكام القرآن).

وأمّا المبارك بن عبدالجبار (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) فقد كان محدّثاً مكثر، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت٥٠٧هـ)، فقد كان عالماً في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألّف في المذهب كتابه "المستظهري"[(١)] وكان من شيوخه أيضاً أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢١هـ) الذي أخذ عنه ابن تومرت العلم في الإسكندرية، وكان متميزاً في الفقه، ومتمكناً في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب "سراج الملوك"، كما كان الطرطوشي مهتماً بنشر السنة ومحاربة البدعة وألف كتابه "الحوادث والبدع".

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية والنقلية، فضبط الأصول، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغير ذلك من العلوم[(٢)]. ورأى عن كثب أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب

---

(١) انظر : تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت ص٦١.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٦٢.

وحضر مناقشتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله[١].

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص ٣٧،٣٨.

المبحث الثاني

البعد التاريخي عند محمد بن تومرت

ونظر في المدارس الفكريـة الرئيسية التـي وجـدت فـي بـلاد المغـرب قبلـه، وخصوصاً تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبـي وسياسـي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند النـاس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي وأهـم تلك الاتجاهـات والأفكـار التـي قـامت علـى أسـس قويـة تحميهـا دولـة فـي بـلاد المغرب والتي استقى منها ابن تومرت أفكاره وزاد عليها.

١- الاتجـاه السـني ويمثلـه دولتـا الأغالبـة والمرابطيــن والدولــة الزيريـة الصنهاجية في آخر عمرها:

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب ابن سالم التميمي الذي عينه الخليفـة العباسـي هـارون الرشـيد (١٧١-١٩٣هـ) سنة١٨٤هـ علـى ولاية إفريقية، ثم مالبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي عن الخلافـة العباسية، والاكتفاء بالتبعية الاسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغاً من المـال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلـب. وقـد توالـى علـى عـرش دولـة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبدالله بـن الأغلـب (٢٩٠-٢٩٦هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسـام داخلـي بيـن الأغالبـة أنفسـهم، ممـا ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ وقد عمل الأغالبة - حين مدة حكمهم - على توطيد المذهب السني ونشره فـي البـلاد التـي خضعـت لنفوذهم فـي بـلاد المغـرب، وصقليـة، كمـا عملـوا أيضـاً علـى نشـر الحضـارة

الإسلامية في تلك الديار[١] أما دولة المرابطين (٤٥١-٥٤١هـ) فقد قامت في جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامة الفقيه عبدالله بن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين وقامت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها "الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وكل أمور الدولة[٢]. وكانت من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصارى في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين، وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (٤٨٠هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لاسيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم مالبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩-٥٤١هـ) سنة ٥٤١هـ[٣]. وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس[٤]،

---

(١) انظر: الأغالبة سياستهم الخارجية ص٤٤ للأستاذ محمود اسماعيل.

(٢) انظر : قيام دولة المرابطين لحسن محمود ص١٦٦.

(٣) انظر: البيان المغرب (٢٣/٣).

(٤) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص٥٤١.

وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين، فإن الدوله ـ ـريرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم، ثم مالبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ)(١) وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضياً(٢). ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي)، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليه سيف السنة ومزيل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي).

٢- الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدراريين (١٤٠-٣٤٧هـ) والرستميين (١٤٤-٢٩٦هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج، حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى(٣).

---

(١) انظر: ابن خلدون (٦/١٥٩).
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. أحمد العبادي ص٤٦.

وفي سنة ١٥٥هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لمآخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار (١٥٥-١٦٧هـ)[1] وقد تولى على عرش الدولة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار (٣٣٢-٣٤٧هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار.

أما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الإباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبدالرحمن بن رستم (١٤٤-١٧١هـ) سنة ١٤٤هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له[2].

ولما توفي عبدالرحمن بن رستم سنة ١٧١هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبدالوهاب، رأى آخرون[3] مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبدالرحمن الأمر فيهم، لكن مسعود تنازل لعبدالوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة[4] وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها وهو اليقظان بن أبي اليقظان

---

(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص٥٤٣.

(٢) انظر : المغرب الكبير (٥٨٣/٣).

(٣) المصدر السابق : (٥٥٢/٢-٥٥٣).

(٤) انظر : الأزهار الرياضية للباروني (٩٠/٢).

(٢٩٢-٢٩٦هـ) وذلك سنة ٢٩٦هـ[1]، لكن سقوط هذه الدولة لايعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة[2].

٣- الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين:

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب إذ أن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة ٢٩٦هـ.

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة، والرستميين، والمدراريين، والأدارسة فاستطاعت بذلك - إلى حد ما - أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس[3] كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام ٣٦٢هـ.

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/٥٦٥).

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د. أحمد العبادي ص٤٨.

(٣)المصدر السابق : ص٥٥.

٤- الاتجاه الاعتزالي: ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢-٣١٣هـ)

أقام هذه الدولة إدريس بن عبدالله بن الحسن سنة ١٧٢هـ، وذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غرباً إلى تلمسان ووهران شرقا[١].

ولما توفي إدريس بن عبدالله سنة ١٧٧هـ بقي الأمر في سلالته حتى قضى على دولتهم العبيديون عام ٣١٣هـ[٢] وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف[٣]، وقرب نسبهم للرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يظهروا شيئاً من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لاسيما القدماء منهم وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصاً من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماساً لجعله مذهباً رسمياً لدولتهم[٤].

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب ص٥٠.

(٢) تاريخ المغرب الكبير (٤٨٦/٢).

(٣) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص٥١.

(٤) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص ٥٤٦ - العدد السادس.

المذاهب السابقة وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه، ولذلك جاءت الأسس الفكرية لدعوته خليطاً مضطرباً ونسيجاً فكرياً متبايناً.

إن ابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به، لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها. ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط. بل انه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة. فهو في دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف، وهو في علمه متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وآتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبدالمؤمن، ويعقوب بن يوسف، ويعتبر رجل السياسة لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها[1].

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة وأخذ من المذاهب الفقهية والفكرية مايتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى.

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين ص٣٨.

المبحث الثالث

مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام ٥١٠هـ[١] شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الإفريقي واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحمل المصاعب والمشاق، ويشكل خلايا تابعة له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الإسكندرية وأخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقصد طرابلس بحراً حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية ثم انتقل إلى المهدية بتونس واتخذ أحد مساجدها مقراً يدرس به العلم مُركّزاً على علم الأصول وأحدث اضطراباً في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو قسنطينة، ثم بجاية التي وصلها سنة ٥١١هـ وأقام بها مدة، واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وناظر الفقهاء بها وظهر عليهم[٢].

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبدالمؤمن بن علي الذي كان متجهاً إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو، فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته وقد لمح ابن تومرت في عبدالمؤمن بن علي علامات الذكاء

---

(١) روض القرطاس ص١٢٠.

(٢) انظر: تجربة الأصلاح في تجربة المهدي ابن تومرت ص٦٣.

وصفات النبوغ وملامح الفطنة وأخبر ابن تومرت تلميذه بحقيقة ماينوي القيام به[1] فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكروه.

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع، فالرواية تقول: إن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبدالمؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، وان صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجَفْر، وإنه رأى فيه أنه لايتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع بدم و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبدالمؤمن ويبشر به قبل قدومه.

وكتاب الجَفْر هذا: يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق رحمه الله كتب لهم فيه كل مايحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية، وسماه الجَفْر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفراً الصادق كجده أمير المؤمنين لايعلم الغيب قال تعالى: ﴿قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون﴾ (سورة النمل، آية:٦٥).

وقال تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة في ظلمات الأرض ولارطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ (سورة الأنعام، آية: ٥٩).

---

(١) انظر : المغرب الكبير (٢/٧٧٤،٧٧٥).

إن كتاب الجفر لاتصح نسبته إلى جعفر الصادق رحمه الله، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، وكثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاق، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد بن السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن مالا يعلم إلا من طريق النقل لايمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعاً وعقلاً أن نقول بثبوته[١].

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالمشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً في هذه الأمور[٢].

لقد تقاربت أفكار عبدالمؤمن مع شيخه وخصوصاً مايتعلق بالخروج على السلطان ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذا يعملان سوياً من أجل تقويض دولة المرابطين[٣].

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبدالله الونشريسي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ماهو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه ابن تومرت ذلك

---

(١) انظر: مجلة المنار (٤/٦٠) لمحمد رشيد رضا

(٢) انظر: دولة المرابطين ص(١٠١).

(٣) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامه محمد ص(١٠٢)

فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريسي بذلك واتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس[1].

واستمر ابن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام ٥١٤هـ وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامجه الذي وضعه لنفسه، والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلي التجربة، اضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما أفضى إلى طرده من فاس، فتوجه إلى مراكش[2] مقر حكم المرابطين. وخلال رحلته إليها كان ينبه عبدالمؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية[3] ويدل ذلك على أنه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام ٥١٤هـ في زي الزهاد. وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاته أو وزرائه، لأنه شاهد في مراكش من المفاسد مالم يره في مدينة ثانية[4] وصدف أن رأى أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها، فوبخها فشكته إلى أخيها، ثم توجه ابن تومرت إلى مسجد علي ابن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب، وخاطب علياً قائلاً "الخلافة لله

---

(١) انظر: ابن خلكان (٥/٤٨)
(٢) انظر: البيذق أخبار المهدي ابن تومرت ص(٢١-٢٦)
(٣) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (١٠٣)
(٤) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ص (٢٨٢/٤)

وليس لك يا علي بن يوسف"[1].

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه علي للاطلاع على حقيقة أمره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السنة، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه[2].

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته، فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان على حق اتبع وإن كان على جهل أدب[3].

وكانت المناظرة فرصة لاتعوض لابن تومرت، لأنها ستتيح له إبراز مالديه من علم، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته. وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته لأن ماستسفر عنه ستتناقله الألسن، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم

---

(١) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (١٠٣).
(٢) انظر: دولة المرابطين لسلامة محمد سليمان ص(١٠٤).
(٣) انظر: دولة المرابطين سلامة محمد ص(١٠٤).

أعداد جديدة إلى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين علي الغاص بالعلماء والأعيان، قدم علماء الدولة المرابطية - الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل - عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمور تباع جهاراً نهاراً، وأن الخنازير تمشي في الشوارع، وأن اموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسؤولية هم حاشية أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه(١).

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز علماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهم بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ماعجزوا عنه بأسلوب أخّاذ، يسخر له كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت(٢).

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخره وإنما هو طالب سلطان، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره، لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين. ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن وربيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب.

وألحّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله، وقال له: "اجعل عليه كبلاً كي لاتسمع له طبلاً" فوافقه على ذلك (٣). وحال

(١) انظر: ابن خلكان (٤٦/٥)

(٢) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد ص (١٠٥)

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٤٩/٥،٥٠)

ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب، والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: "يا أمير المسلمين هذا وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف فخلِّ سبيله إنه رجل لايملك سد جوعه"(١). لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين (٢).

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراكش وبنى فيها خيمته وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قبل المناوئين له. كما أن اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها، وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه.

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادئ، وبعيد عن الأعين، فيتحدث هناك بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية:-

١- إظهار للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٠٦)

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٥/٤٩،٥٠)

المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك [١].

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين: الأول منهما هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين، أما الثاني فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه، وقد نجح في ذلك حيث يذكر البيذق أنه كان كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها "وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به. ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك..." [٢].

إن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

ويبدو أن جرأة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة [٣] حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما أن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدون والأنصار، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٤٦/٥)

(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس ص (٥٤٩)

(٣) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب عبدالله علام ص (٨٥)

الذكاء والنجابة، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، ومن خلال تتبعنا لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدداً من السبل حتى يظهر دعوته للناس، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار ومن هذه السبل مايلي:

أ- أنه تدرج في إظهار دعوته، كما ألبسها الصبغة الأصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لايدركون حقيقة مافيها من انحراف عن منهج أهل السنة والجماعة، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشي [(١)].

جـ- أنه كان يبالغ في إنكار المنكر على الحكام الذين يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية[(٢)]، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

د- مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لايتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشاً وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون[(٣)] وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث

---

(١) المعجب ص (٢٧٠)

(٢) ابن خلدون (٦/٢٢٧)

(٣) أخبار المهدي ابن تومرت ص ٢٢

يلجؤون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لاتتكشف حقائقهم[١].

يقول ابن العماد: (جرّه إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب المحظور ودعوى الكذب والزور من أنه حسني وهو هرغي بربري وإنه معصوم وهو بالإجماع مخصوم...)[٢].

٢- وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جدّ في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بالمبادئ التي يدعو إليها، حيث أعد أفرادها إعداداً خاصاً، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً[٣]، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث أنشأ حلقات للتدريس كان يبث أفكاره من خلالها، ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كتاباً في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته حيث طالبهم بحفظه[٤].

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشي من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فآووه وأجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه[٥]، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس ص (٥٥٠)

(٢) شذرات الذهب (٧٠/٤)

(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس ص ٥٤٩

(٤) ابن القطان نظم الجهات ص (٤٦)

(٥) ابن خلدون (٢٢٧/٦)

من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هَرْغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتمى بشوكتيهما من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته، وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها[1].

٣- ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وقد جاء عمله بهذه الخطوة إذا ماقورن بالخطوتين السابقتين، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكوّن قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر، فلما أطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذاً الأمر بالمعروف ستاراً لتحقيق غايته، وطريقاً لإظهار مفاسد دولة المرابطين فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس[2].

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لاسيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة ٥١٥هـ

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٥١)

(٢) البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت ص (٩)

وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين، وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التفت حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين[1]. وحيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزاً نفسياً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين أراد توسيع نفوذه على القبائل المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والمهدية، لايجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات وهذا لايفطن إليه إلا من أوتي حظاً وافراً من الفطنة والدهاء ونجح دعاة ابن تومرت في

---

(١) انظر: ابن خلدون (٢٢٨/٦)

تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه [1].

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لاتُزال إلا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب، ومن يشك فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وإنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[2].

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجهم دونه، ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام[3]. وكان تاريخ هذه البيعة على الراجح في جبل ايجليز[4] في عام ٥١٨هـ/١١٢٤م وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل، لأنه لايعقل أن يعلن مهديته الكاذبة فور وصوله إلى ايجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ماحدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط، وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين، وساعده على نجاحه ما كان يتسم به

---

(١) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (١٠٩)
(٢) انظر: الكامل لابن الأثير (٦/٥٦٢)
(٣) ابن خلدون (٦/٢٢٨)
(٤) انظر: دولة المرابطين ص (١١١)

كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاً عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير[١].

لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

دَعْنِي فَفِي النفس أشياءٌ مخبـــــأةٌ
لالبــــــسن لها درعاً وجلبابـــــــا
كيما أطهر دين الله من دنــــس
وأوجب الفضل للسادات إيجابــــــا[٢]
تالله لو ظفرت كفي بمطلبهـــــا
ماكنت عن ضرب أعناق الورى آبى[٣]

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين والذين اتهمهم بالتجسيم وهم براء منه وبعد ان فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاءه في جبل ايجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل إلى تينمل[٤] في قلب جبال الأطلس الكبير عام ٥١٨هـ/١١٢٤م واتخذه قاعدة لدولته الناشئة، وقد بقي فيها حتى وفاته عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م[٥].

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس ص (٥٥٤)

(٢) انظر: الذهبي (سير أعلام النبلاء (٥٥٢/١٩)

(٣) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص (١١١)

(٤) نفس المصدر السابق ص (١١٢)

(٥) نفس المصدر ص (١١٢)

المبحث الرابع

الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

إن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولاتتفق مع منهج أهل السنة والجماعة الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت:

أولاً: أنه ادعى المهدية وقال بأنه هو المهدي الذي وعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته إماماً للموحدين سنة ٥١٥هـ: (الحمد لله الفعّال لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي..."[١]. ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل انه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب أتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله: (إن العدل ارتفع، وإن الجور عم، وإن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وإن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وإن الدجالين استولوا على الدنيا، وإن الباطل لايرفعه إلا المهدي، وإن الحق لايقوم إلا بالمهدي، وإن المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وإن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان وآن...)[٢].

---

(١) نظم الجمان لابن القطان ص (٧٥)

(٢) انظر: أعز ما يطلب لابن تومرت ص (٢٥٧)

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله: (انه فرد زمانه صادق في قوله، وإنه يملأها بالعدل - يعني الأرض - ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بينها بقوله: "وأنه يعني المهدي - معصوم فيما دعا إليه من الحق لايجوز عليها الخطأ وإنه لايكابر، ولا يضاد، ولايدافع ولايعاند، ولايخالف ولاينازع... وإنه صادق في قوله، وإنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وإنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور..."[1].

هكذا كان رأي ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك تراثه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجلٌ من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما مُلئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتُمطر السماء مطرها، ويُعطي المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير أيامه دائم"[2].

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه:

---

(١) ابن تومرت أعز ما يطلب ص (٢٥٦، ٢٥٧)

(٢) النهاية، الفتن والملاحم (١/٣١) تحقيق د. طه زيني

أ- اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم -، واسم أبيه، كاسم النبي - صلى الله عليه وسلم - فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبدالله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهم.

قال ابن كثير - رحمه الله في المهدي: "وهو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه"(١).

وصفته الواردة: "أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف"(٢).

ب- مكان خروجه:

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم.. (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال...) فإذا رأيتموه، فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي...)(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله -: (والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق "لامن سرداب سأمراء" كما

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم (٢٩/١)

(٢) الأجلى: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (١٣٦٧/٢)

يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لادليل على ذلك، ولابرهان لا من كتاب، ولامن سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان.. إلى أن قال "ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود "أيضاً" وهو زيّ عليه الوقار" لأن راية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت سوداء يقال لها : العقاب" إلى أن قال: (والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث...)[١].

٢- وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟!)[٢].

٣- وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" إلى أن قال: (فينزل عيسى ابن مريم صلى عليه وسلم، فيقول أميرهم، تعال صلِّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة"[٣].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

---

(١) النهاية الفتن والملاحم (٣١/١)

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى، (٤٩١/٦) مع الفتح، حديث رقم (٣٤٤٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى (١٩٣/٢)، حديث رقم (١٥٦).

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدلّ على صلاح هذا الأمير وهُداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمّى: محمد بن عبدالله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

١- فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه)[١].

٢- وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة"[٢].

٣- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المهدي منّي أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين..)[٣].

ولقد تكلم العلماء في أحاديث المهدي وقالوا:

١- قال الشوكاني: (الأحاديث في تواتر ماجاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف

---

(١) رواه أبو نعيم في "أخبار المهدي" صححه الألباني صحيح الجامع الصغير (٥/٧١٧٠)

(٢) المنار المنيف لابن القيم ص (١٤٧-١٤٨)

(٣) سنن أبي داود، كتاب المهدي (١١/٣٧٥) رقم ٤٢٦٥

والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرّحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع وإذ لامجال للاجتهاد في مثل ذلك..) [١].

٢- وقال صديق حسن خان: (الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التوتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد"[٢].

٣- وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني: (والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدّجال وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام"[٣].

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد، مسند أحمد، مسند البزار، ومسند أبي يعلي، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومستدرك الحاكم، ومصنف ابن أبي شيبة، وصحيح ابن خزيمة، وغيرها من المصنفات[٤] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه. ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت

---

(١) التوضيح في تواتر ماجاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح

(٢) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (١١٢)

(٣) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص (١٤٧)

(٤) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ص (١٦٦/١٦٨)

كتب أهل السنة[١] وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب "دائرة معارف القرن العشرين"[٢] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: "فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو القليل أو الأقل منه[٣].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون: ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة"[٤].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: (إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين" الجرح مقدم على التعديل ولو اطّلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره"[٥] ثم بين أن ماكتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه

---

(١) تفسير المنار (٩/٤٩٩ - ٥٠٤)

(٢) دائرة معارف القرن العشرين (١٠/٤٨٠)

(٣) مقدمة ابن خلدون (١/٥٧٤)

(٤) أشراط الساعة للوابل ص (٢٦٧)

(٥) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (٥/١٩٧ - ١٩٨)

بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً، وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لايجعلنا نترك ماصح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ماجاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لايؤدي إلى إنكار المهدي على مافي الحديث ثم إن المهدي الحقيقي لايحتاج إلى أن يدعوا له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لايُعتدّ به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمده يُردّ بها ماثبت من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم(١).

---

(١) انظر: أشراط الساعة ص (٢٦٧)

قال العلاّمة ابن القيم في كلامه عن المهدي: "وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين ابن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سأمراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحسَّ فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: أخرج يامولانا! أخرج يامولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد احسن من قال:

ما آن للسرداب أن تلد الذي
كلمتموه بجهلكم ما آنا؟
فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم
ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل...)[(١)].

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعي المهدية.

إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.

لقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة ألزم بها أتباعه وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادّعاه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي

---

(١) انظر: المنار المنيف ص (١٥٢ - ١٥٣)

المعصوم، ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم، دون حرج أو تردد، وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذ جاء فيها: "ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال.. ولابد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن، وأن يكون معصوماً من الجور، لأن الجائر لايهدم الجور، بل يثبته... وأن يكون معصوماً من الكذب لأن الكذب لايهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من الباطل.. ولايصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم"[١].

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال: "لايقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد"[٢] وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت اتجاهاً قوياً من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية، وقد تمكن من تأصيل هذا الأمر عند أتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاره به[٣].

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولاً بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وإنه المهدي المعصوم، وروي في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي ثم بالمهدية ثم

---

(١) انظر: أعز ما يطلب ص (٢٤٥ - ٢٤٦)

(٢) أعز ما يطلب ص (٢٤٦)

(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس

بالعصمة.

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله من شرع، ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر، وعمر، وعثمان وعلي وغيرهم[1].

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان[2] كما قالوا: إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ماظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان"[3] وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير "لأن من جعل بعد الرسول معصوماً يجب الإيمان بكل مايقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها"[4] بل لم يكتف بهذا الأمر حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته.

ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب أعز مايطلب[5] وأمرهم بقرائته بل حفظه، وهذا بلاشك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

---

(١) انظر: النبوة والأنبياء للصابوني ص (٥٥-٥٦)

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٩٥)

(٣) انظر: عقائد الإمامية محمد رضا ظافر ص (٧٢)

(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص (٥٦٠)

(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص٥٦٠)

ولقد أخطأ الدكتور عبدالمجيد النجار عندما قال (وما قال به - أي محمد بن تومرت - من عصمة الإمام يخالف أيضاً العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغاً فيها للشروط التي يشترطها أهل السنة في الإمام"[١] ولقد ذكرت شروط أهل السنة في الإمامة في الكتاب الثاني من (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي).

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانيا: لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم كقوله: حيث سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة [٢].

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله - سبحانه - حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: "واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولاتجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن"[٣] لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ماعساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سمى

---

(١) تجربة الأصلاح عند ابن تومرت ص (١٢٧)

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٤٨/١٩)

(٣) انظر: أعز ما يطلب ص (٢٠٤)

أصحابه بالموحدين[1]، لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم"[2].

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله - سبحانه وتعالى - حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمّن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان "... جُل مايدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية...)[3] أما المقريزي فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علّمهم المذهب الأشعري فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب[4].

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري بل أخذ منهم أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، قد وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها[5].

لقد وظّف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية

---

(١) انظر: عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ١٢ سنة ١٩٥٠ ص٤٩ حسين مؤنس .

(٢) انظر: المراكشي المعجب ص (٢٧٦)

(٣) نفس المصدر ص (٢٧٦)

(٤) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٦٤)

(٥) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٣٩)

ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر، لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله.

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيتهم، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكافر كما وأن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق، ويكافحون الكفر وطواغيته، وأن معتقدهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم، وأن الموت في سبيل الله ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة. فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان، هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي. فانطلقوا كالأعصار يحطمون أعدائهم وينشرون مبادئهم[١].

إن الدكتور عبدالمجيد النجار في كتابه تجربة الأصلاح في حركة المهدي ابن تومرت والذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي والذي قدم له الدكتور طه العلواني يثنى على المنهج العقدي لابن تومرت ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة حيث يقول: (وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها، واعتنقوا فهماً جديداً يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٣٩،٤٠)

على المغـرب منـذ قيـام الدولـة الموحديـة بسـبب موافقتـه التقريـر العقدي لابـن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قـامت رسـائله المبسّطة الموجـزة فـي العقيدة وخاصة رسالة المرشدة بـالدور الكبـير فـي ذلـك حيث أصبحـت مقـرراً للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام"[1].

لقد اسـتعمل الموحدون القوة فـي فـرض عقـائدهم المختلطـة علـى الشـمال الإفريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسـي فـي فرضـهم علـى النـاس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابـن تيميـة عـن المرشـده كيـف كـان أصلهـا وتأليفهـا؟ وهـل تجـوز قراءتها أم لا؟

فقال: (الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: انه وضعها أبو عبدالله محمد بـن عبدالله بن تومرت: الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر فـي المغـرب فـي أوائـل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم. وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولمـا رجـع إلـى المغـرب صعد إلـى جبـال المغـرب، إلـى قـوم مـن الـبربر وغيرهم: جهالاً لايعرفون من ديـن الإسـلام إلا ماشـاء فعلمهـم الصـلاة والزكـاة والصيـام وغـير ذلـك مـن شـرائع الإسـلام واسـتجاز أن يظهـر لهـم أنواعـاً مـن المخاريف، ليدعوهم بها إلى الديـن، فصـار يجـئ إلـى المقـابر يدفـن بهـا أقوامـاً ويواطئهـم علـى أن يكلمـوه إذا دعـاهم، ويشـهدوا لـه بمـا طلبـه منهـم، مثـل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم الـذي يواطئ اسمه اسمه، واسم أبيه وإنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جـوراً

---

(١) تجربة الأصلاح عند ابن تومرت ص (١٣٨)

وظلماً. وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام. فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره.

ثم أن أولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولايظهروا أمره، واعتقد ان دماء أولئك مباحة بدون هذا، وإنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره وأتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا اخباره من هذه الحكايات انواعاً وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه...)[1].
واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة. يقرؤون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولايعرف عن أحد من أصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضاً اموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ماكانت تستحله الجهمية المعطلة - كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات - من أهل السنة والجماعة...

ومذهب السلف وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولاتمثيل، فلا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه، ولايمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لاتشبه الذوات، فصفاته لاتشبه الصفات.

---

(١) انظر: الفتاوى (٤٧٧/١١).

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل، ونفي مجمل، وأعداء الرسل: الجهمية الفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل. فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه: بكل شيء عليم وإنه على كل شيء قدير وإنه حي قيوم، وإنه عزيز حكيم، وإنه غفور رحيم، وإنه سميع بصير. وإنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين وإنه لايحب الفساد، ولايرضى لعباده الكفر، وإنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه، وإنه يغضب على الكفار ويلعنهم، وإنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه. وإنه كلم موسى تكليما، وان القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. كما قال: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ وقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ناد مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكوه: فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار، قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة" وقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح أنه قال: "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لاتضامون في رؤيته" و "إن الناس قالوا: يارسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضامون في رؤية الشمس صحواً ليس دونها حجاب؟ قالوا: لا. قال: فانكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر" فشبه صلى الله عليه وسلم الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي فإن العباد لايحيطون بالله علما، ولاتدركه أبصارهم. كما قال تعالى: ﴿لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾.

وقد قال غير واحد: من السلف والعلماء إن "الادراك" هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ ﴿هل تعلم له سمياً﴾ و﴿لم يكن له كفواً أحد﴾ فيبين في هذه الآيات أن الله لاكفو له، ولا ند له، ولا مثل له ولاسمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو ارادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواءه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه. تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر.

ومن قال: ان الله ليس له علم، ولاقدرة ولا كلام، ولامشيئة، ولا سمع ولابصر، ولامحبة ولارضى، ولاغضب، ولا استواء ولا إتيان ولانزول فقد عطل اسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ماوصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ماوصف به نفسه ولارسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماءً ولبناً وخمراً وعسلاً ولحماً وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الاسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟!

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير. وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير،

وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا. وأخبر أنه رؤوف رحيم، وأخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم، وليس هذا مثل هذا. وأخبر أنه عليم حليم، وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم، وليس هذا مثل هذا. وسمي نفسه الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا. وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم. على هذا إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل لايقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم، وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم - فيصفون الرب تعالى "بالصفات السلبية" ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم، فيبقى ماذكروه مطابقاً للمعدوم، فلا يبقى فرق بين مايثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فينافقون يثبتونه من وجه، ولايجحدونه من وجه آخر. ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لايكون موجوداً، فإنه ليس في الأمور الموجودة ماهو مطلق لايتعين، ولا يتميز عن غيره، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر أمراً مطلقاً، وإن كان لاحقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لايجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مبايناً لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون هو وجود المخلوقات ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولافي ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها،

فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم - الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم - كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة، ونصرهم. بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على أنه وجود مطلق، ولايزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في "مرشدته" الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام! من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث فان هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرة. كما قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾. ﴿أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: "إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة. ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا اعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه -

خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فأقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه. وأقدر لي الخير حيث كان. ثم أرضني به".

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على ان الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله.

فصاحب "المرشدة" لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة، ولاذكر فيها الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة. بل اقتصر فيها على مايوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة. أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله.

فذكر فيها ماتقوله نفاة الصفات. ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ماأوجبه الله ورسوله وليس لأحد أن يوجب على المسلمين مالم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا مالم يوجب الله قوله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقا، لكن لايجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له ان يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وماذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً، فالحق يجب أتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام[1] على ذلك في كتاب كبير وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون إذ جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم موحدون، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد و(التوحيد) هو مابينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. كقوله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾ وهذه السورة تعدل ثلث القرآن. وقوله: ﴿ قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما بدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾ وقال تعالى: ﴿ فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً فمن قال إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق. أو قال: ان الله يرى في الآخرة أو قال: "أتخيرك بعلمك. وأتقدرك بقدرتك" لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبهاً مجسماً، وصاحب "المرشدة" لقب أصحابه موحدين، اتباعاً هؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ماأنزل الله به من سلطان، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن.

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى: إنه قادر على مايشاء وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: إنه لايقدر على غير مافعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير. سواء شاءه أو لم

(١) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية

يشأه. كما قال تعالى: ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم. ومن تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً﴾.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم "انه لما نزل قوله تعالى: ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿اومن تحت أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال: هاتان اهون.

قالوا فهو يقدر الله عليهما وهو لايشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لايسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسنة عامة. وقد قال تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ فالله قادر على ذلك، وهو لايشاؤه، وقال تعالى: ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها.. ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ فالله قادر على ذلك، فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لايشاؤه وقد شرحنا ماذكره فيها كلمة كلمة وبينا مافيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق مافيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لايضره ذلك، فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده، بل عليه ان يتبع ولا يبتدع، ويقتدى ولا يبتدي، فان الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً. وقال له: ﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ وقال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم علم المسلمين مايحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لايفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قال: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾[1] وهذا رد علمي رصين على المرشده التي وضعها ابن تومرت لأصحابه تبين للقارئ فساد ابن تومرت في منهج العقائد وبعده عن القرآن والسنة واعتماده لمناهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة، وكان رد العلامة ابن تيمية مليئاً بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة، كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وطريق السلف الصالح إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (٣٣٠ هـ)، (وأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) والفخر الرازي (٦٠٦هـ)، وإمام الحرمين (٤٧٨ت هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياتهم ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم.

أ- **<u>أبو الحسن الأشعري</u>**: وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله يقول في كتابه الإبانة: (فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة

---

(١) انظر: الفتاوى (٤٧٦/١١ إلى ٤٩١)

والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عزوجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن حنبل نضّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته نحن قائلون، ولما خالف قوله مجانبون"[١].

ب- **إمام الحرمين الجويني**: (لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي...)[٢].

جـ- **الإمام الغزالي**: (إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وماركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن، ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان)[٣].

د- **واما الفخر الرازي** فقد قال في وصيته: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية،

---

(١) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص (١٧)
(٢) انظر: الحموية لابن تيمية ص (٧)
(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ص (٨٩، ٩٠)

والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع في التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات... فلهذا أقول: كل ماثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين...)[1].

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[2]

كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها
وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر
على ذقن أو قارعاً سن نادم[3]

---

(١) انظر: عن القائد لتصحيح العقائد ص (٧٤)
(٢) انظر: إيثار الحق على الخلق ص (٨)
(٣) المصدر السابق نفسه.

إن ابن تومرت استخدم في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة منها رميهم ظلماً وزوراً بالتجسيم، وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال، والأشاعرة، والرافضة أساساً لعقيدة دولة الموحدين الجديدة، وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة لسببين:

١- لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي، ولم يقتصر الأمر على هذا بل تبنى - بصفته إماماً مطاعاً - هذا الجانب فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة، وفشوا مذاهب المتكلمين.

٢- تأليفه للمرشده، وقد تكلمنا عنها وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس للعوام، مما جعلها تشتهر بسرعة.

وفيما عدا ذلك فابن تومرت يبدو أقرب مايكون إلى مذهب المعتزلة، ومذهب الشيعة، وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لايسميه إلا الإمام المعصوم، وليس قربه من هؤلاء بأقل قربة من الأشاعرة بل أخذ شيئاً من الخوارج لاسيما في التساهل في الدماء ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثر علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب[(١)].

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضاً ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل

---

(١) انظر: الدعوة الموحدية لعبدالله علام ص (١٥١)

هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل[١].

ومما لاشك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقائد كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، وخصوصاً بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب.

وقد تحدث المؤرخ المغربي السلاوي عن هذا الأمر بقوله: "... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رضي الله عنهم - في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر ... واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة"[٢].

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتنق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرّح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا " ... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم،

---

(١) الدعوة الموحدية بالمغرب عبدالله علام ص (١٥١)

(٢) السلاوي (١٢٦/١ - ١٢٧)

وسفك دماءهم واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل..."[1].

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: "اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم..."[2].

وبالاضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارئ لكتاب أعز ما يطلب يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوَى الباطلة ضدهم، بل إنه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض[3].

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدي لها حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية بل إنه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض "واعلموا وفقكم - يعني أتباعه - أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله".

---

(١) أعز ما يطلب ص (٢٦)

(٢) المعجب ص (٢٨٢)

(٣) من هذه الفصول على سبيل المثال (باب في بيان طوائف الملثمين والمجسمين)

كان هذا هو توجيه ابن تومـرت لأتباعـه فـي حملتـه الإعلاميـة الكاذبـة ضـد دولة المرابطين السنية، التي أقـامت كيانهـا علـى مذهـب أهـل السـنة والجماعـة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدى مـن سـنة رسـول اللـه صلـى اللـه عليه وسلم. فقد طعـن فـي عقيدتهـم ووصفهـم بـأنهم مجسـمون وكفـار لاتجـوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهـذا قـاتل الموحـدون المرابطيـن، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وماذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكرياً عقدياً غالى فيه حتى أصبح العـداء للمرابطيـن اتجاها فكرياً واضحاً عند ابن تومرت وأتباعه المخلصين لدعوتـه. وممـا لاشـك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومـرت مـن دولـة المرابطيـن، قـد أثَّـر علـى معنوياتها، ثم على كيانها السياسي وذلك لأن كثيراً من الناس قد تبنوه، ومن ثـم انبروا للعمل علـى حـرب هـذه الدولـة، والسـعي إلـى إسـقاطها لتقوم دولـة ابـن تومرت على أنقاضها[1].

وتسـاهل ابـن تومـرت فـي إراقـة الدمـاء دونمـا مسـوغ شـرعي، حيث كـان لايتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئاً من مطامحـه مهمـا كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عنـد ابـن تومـرت حيث البسه لباساً دينياً حتى أصبح اتجاهاً دعوياً واضحاً في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ماذكره ابن القطان – أحد تلاميذ ابن تومـرت – أنـه كـان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت "... ومن لم يحضـر أدب فـإن تمـادى قتـل، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط، وكل من لم يتـأدب بمـا أدب بـه ضـرب بالسـوط بـالمرة والمرتيـن، فـان ظهـر منـه عنـاد وتـرك امتثــال الأوامــر قتــل

(١) انظر: الدعوة الموحدية بالمغرب ص (١٨١)

ومن داهن.. قتل".

كما ذكر كل من البيذق[١] وابن القطان[٢]، وغيرهما من المؤرخين[٣] أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفاً لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ حيث قال: "فأمر بالميز فكان البشير[٤] يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً، وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار، فظنوا مواقعوها، ومالهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل..."[٥].

وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز بإتفاق مع الونشريسي حيث طلب منه ابن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: (فلما كان عام تسعة عشر وخمس مئة، خرج يوماً فقال: تعلمون أن البشير - يريد الونشريسي - رجل أمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مبشراً لكم، مطلعاً على أسراركم، وهو آية لكم، قد حفظ القرآن، وتعلم الركوب، وقال: اقرأ، فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبهتوا، وعدُّوها آية لغباوتهم، فقام خطيباً، وتلا: ﴿ليميز الله الخبيث من

---

(١) انظر: أخبار المهدي، تحقيق عبدالحميد حاجيان ص (٧١-٧٢)

(٢) نظم الجمان ص (١٠٢-١٠٤)

(٣) كابن الاثير، وابن خلدون، وابن العماد، والسلاوي

(٤) هو أبو عبدالله بن محسن الونشريسي

(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٦٨)

الطيب﴾، وتلا: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾، فهذا البشير مطلع على الأنفس، مُلْهَمٌ، ونبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم"[1] وقد صحبنا أقوام أطلعه الله على سرهم، ولابُدّ من النظر في أمرهم، وتيمُّم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: من كان مطيعاً للإمام، فليأت، فأقبلوا يُهْرَعُون، فكانوا يُعرضون على البشير، فيُخرج قوماً على يمينه ويعُدُّهم من أهل الجنة، وقوماً على يساره، فيقول هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتى بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب ردُّوه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفِرُّ منهم أحد، وإذا تجمع منهم عدة، قتلهم قراباتهم حتى يقتل الأخ أخاه...)[2].

قال شعيب الأرنؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ في هذه الأمة محدَّثين، وإن عمر منهم) في الونشريسي بأنه ملهم: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه...)[3].

---

(١) البخاري (٤٢/٧) رقم ٣٦٨٩

(٢) سير أعلام النبلاء (٥٤٦/١٩)

(٣) الذهبي سير أعلام النبلاء (٥٤٦/١٩)

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها، وذلك بسبب ماتحمله من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته[1] ولما حل ابن تومرت تينمل، آواه أهلها وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عدداً كبيراً من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل[2] ولكي لاتحدث هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه، أو تلقى معارضة عند الناس، فإنه كان يظهر بشيء من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية مايقوم، ويدعو إليه، فقد ذكر المؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكاناً للتنفس، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم، وليشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه، ويشهدون له بصحة مايدعوا إليه ويعظم اعتقادهم فيه، وتتأكد طاعتهم له، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبروا يستبيح دمائهم حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لايفشوا سره بعد ذلك[3].

---

(١) انظر: الدعوة الموحدية لعبدالله علام ص (١٩١،١٩٢)
(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الاثير (٥٦٣/٦)
(٣) انظر: الفتاوى (٤٧٧/١١)

هذه صورة وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليه، ولاشك أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب حتى ولو كان المقتول شخصاً واحداً، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله بل مهدياً معصوماً!؟(١).

وإني لأستغرب من الدكتور عبدالمجيد النجار في تسمية كتابه "تجربة الأصلاح في حركة المهدي ابن تومرت" وكان الأولى به أن يسميها تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي ابن تومرت ومن العجب أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبدالمجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الأصلاح ومناهج التغيير وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات.

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس ص (٥٦٩) لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

المبحث الخامس

المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولاً: المنهج التربوي:

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعوته، ولذلك اجتهد في محاربة المنكرات التي انتشرت بين عوام الناس بكل مايملك من قوة ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلماء للتقليل من هيبتهم، وإضعافهم ليتسنى له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويؤصل مايريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم أهدافه. ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين:

١- التربية العقدية الروحية:

استغل ابن تومرت جهل أتباعه من البدو والأميين الذين لايستطيعون أن يفهموا الشريعة من أصولها المعتمدة وكتب لهم شيئاً في العقائد والعبادات بعضها باللسان البربري، وبنى مكاناً للعبادة ولتعليم الطلبة على منهجه الذي رسمه وتربيتهم عليه.

قال ابن خلدون: (فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري)[1].

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي وتعلم المرشدة

---

(١) ابن خلدون (٦/٢٢٧،٢٢٨)

واستيعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق أحكام العبادة وكان يوزّع أصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسؤولاً عليهم أحد الطلبة النابهين، ونهج منهج الشدة في التعليم والتربية وأحدث أحكاماً تبلغ إلى الضرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون في حضور الأوقات أو في حفظ مايطلب منه حفظه(١).

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد أما من برز في العلم من أصحابه فالف لهم كتباً ورسائل خاصة وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي على العقيدة التي جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة.

واهتم بالجانب الروحي واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهاد في سبيل الله طلباً للشهادة، ومما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: "ولاتنازعوا ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزاً عظيماً...)(٢).

٢- التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علمياً وروحياً شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتآخي، وجعل أهل جبال أطلس في تينملل الأنصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين، وقعد قواعد في هذا المجتمع للتآخي والتعاون وإغاثة المظلوم، واحترام الممتلكات، حمل عليها الكافة، ووضع تعازير قاسية لعقاب من يتعدّاها، وربط المجتمع الجديد بوشائج

---

(١) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (٢٦،٢٧)

(٢) ابن تومرت: رسالة إلى الموحدين ص (٩) نقلا عن كتاب عبدالمجيد النجار ص (١١٦)

القربى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاة بينها أو بطريق المصاهرة المتبادلة وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله: (مافي الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "لايزال أهل المغرب ظاهرين"[١] وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدّجال، ومنكم الذي يؤمُّ بعيسى، وحدَّثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به..)[٢].

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحدي (لهم تودُّد وأدب وبشاشة، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولايخلون يوماً من طرادٍ ومثاقفة ونضال...)[٣].

ويصف ابن خلكان محمد بن تومرت فيقول: (قبره بالجبل معظم، مات كهلاً، وكان أسمر ربعةً، عظيم الهامة، حديد النظر مهيباً، وآثاره تغني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفسُ ترى إراقة ماءِ الحياة دون إراقة ماء المحيَّا، أغفل المرابطون ربطه وحلّه، حتى دبَّ دبيبَ الفلقِ في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفاً بزيت، أو قليل سمن، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يوماً، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ماغنموه، فأمر بإحراق جميعه، وقال: من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغي الآخرة، فجزاؤه عند الله، وكان يتمثل كثيراً:

تجـــرد من الدنيا فإنك إنما

خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد [٤]

---

(١) انظر: فتح الباري (٢٩٥/١٣) الطبعة السلفية

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٥٤٩/١٩)

(٣) الذهبي سير أعلام النبلاء (٥٤٩/١٩)

(٤) وفيات الأعيان (٥٤/٥)

ثانيا: المنهج السياسي:

حرص ابن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ، ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ويحمّلهم المسؤولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف، وتوّج أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ونبهه إلى انتشار المنكرات، ووعظه وأغلظ له القول وقال له: (إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولاحاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسؤول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه)[1].

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن "خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه، وأعلن الجميع بخلعه"[2] وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير في سبل ثلاثة، حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة نفسية للأنصار:

١- الحملة النقدية ضد المرابطين:

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين، محاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخاً نهائياً وترسيخ ولائهم له: "فكل من اطاعهم

---

(١) تاريخ الدولتين للزركشي ص (١٢١)

(٢) نظم الجمان لابن القطان ص (٢٩)

في معصية الله وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم، وكلّ من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة وأعانوهم على جهاد الكفرة فخلّوا سبيلهم وهم إخوانكم في دين الله وسنة رسوله، وإن عاندوا الحق وأصرّوا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم"[١] وشن حرباً نفسية على حكام وأمراء وأتباع المرابطين في رسالته إليهم "الى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية لمتونة، أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً، والجديد بالياً، وكتبنا هذا إليكم إعذاراً وإنذاراً، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضا"[٢].

وهكذا شرع ابن تومرت في توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها كافة الناس من أهل المغرب موالين أو معادين وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم، وتضخيم أخطائهم، تنفيراً للنفوس منهم وتمهيداً لنزع ولائهم ثم لمعاداتهم، وإمعاناً منه في تهجينهم وتشويه صورتهم اخترع الألقاب المشينة ورماهم بها كـ(المجسمون) و(الزراجنة) تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان لأنهم

---

(١) رسالة إلى الأتباع لابن تومرت ص٢.

(٢) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموشية لابن الخط

بيض الثياب سود القلوب، و (الحشم) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم[1].

٢- التنظيم السياسي:

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسياً بحيث يضم وينظم ويرتب جميع أفراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولائهم للدعوة ويمكن مراقبتهم والإشراف عليهم، ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها. وقد بلغت طبقات الموحدين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة. كانت الطبقات الثلاثة الأولى، أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشائخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين وتسيير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية[2]. وقد جعل الدكتور عبدالمجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التي أنيطت بعهدتها:

الجهاز الأول: جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، ويشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة

(١) انظر: نظم الجمان لابن القطان ص (٨٥)

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٤٠)

والغزاة.

والجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضمّ مجموعة من القبائل وهي: هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنفيسة، وهنتاتة، وأهل القبائل[1] قال ابن الخطيب: (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لايتعدّاها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لاينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده"[2].

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضماناً للمزيد من النجاح واجتنابا للعفوية والفوضى، وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة، وهي التي تكفلّ بها الجهاز الأول. ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادئ العقدية التي قامت عليها الدعوة، وهي التي تكفلّ بها الجهاز الثاني، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث.

أما الجهاز الرابع فيبدو أنه وضع لحصر الأتباع وإحكام ارتباطهم، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية، فيكون بدور مانسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة. وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: "أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو"[3].

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمد بن تومرت ولذلك

---

(١) انظر: تجربة الأصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص (١٢٠، ١٢١)

(٢) الحلل الموشية لابن الخطيب ص (٨٠)

(٣) نفس المصدر ..... ص (١٢٢)

أسس بديلاً سياسـياً اجتماعيـاً تربويـاً ليحـل محـل النظـام السياسـي والاجتمـاعي والتربوي في دولة المرابطين[١].

لقد أظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كـبرى، وقبـض بيـد من حديد على أنصاره، فأعطى مجلس العشرة سلطاناً كبيراً وحكّمهم في الناس، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبـائل، وسـيطر بواسـطتهم علـى القبـائل، وجعل الجميع عيوناً له بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة أو كبـيرة ممـا يقع حوله أو يصلهم من أنباء مما جعل ابن تومرت مطلعاً علـى أمـور مجتمعـه الجديد وأصبح مطاعاً ومرهوباً في جماعة كبـيرة مـن المصـامدة تطيعـه طاعـة عمياء حقا، وتخاف منه خوفاً شديداً...)[٢].

٣- تعبئة الأنصار:

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جداً حيث إنه استهدف دولة عرفـت بجهادهـا في الصحراء الكبرى وفي إسبانيا وكان لها الفضل بعد الله في توحيـد المغـرب الأقصى مع الأندلس واشـتهر حكامهـا بـالصلاح والعدل والجهـاد وحـب الخـير لعموم الأمة، ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم أنهم على درب الحـق، وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد في تعبئته لأنصاره على:

أ- غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على الحق:

ولذلـك خـاطبهم بقولـه: (مـاعلى وجـه الأرض مـن يؤمـن إيمـانكم، وأنتـم

---

(١) انظر: تجربة الأصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص (١٢٢)

(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ص (١٨١)

العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولايزال الأمير فيكم إلى قيام الساعة...)[١].

وحرص ابن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها، فكان لايكل ولا يمل في تفنيد كل ماوجهه المرابطون من حملة مضادة ضد دعوته البدعية، وقاد ابن تومرت حملة دعائية مضادة، ومن ذلك ماخاطب به أصحابه قائلاً: "واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكّارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى مايقولونه، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله، ومانسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتبهوا وفقكم الله لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشهم ودنياهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها وحرّفوا الكلام عن مواضعه. ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة إلى الخلاف وسموه مخالفاً ببغيهم.."[٢].

لقد استطاع ابن تومرت أن يقنع أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله وشحن بذلك النفوس، وأقنع العقول، وخطا خطوة أخرى لتعزيز مكانته وبسط هيمنته على أتباعه وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم.

---

(١) المعجب للمراكشي ص (٢٥٦، ٢٥٧)

(٢) رسالة إلى الأتباع ص (٤) وأيضاً الرسالة المنظمة ص (١٠٨)

ب- الثقة بالإمام:

وسلك مسالك متعددة من أجل إقناع أصحابه وأتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهد في متاع الدنيا من مأكلٍ وملبسٍ ومسكنٍ، ثم جعل ثقة أنصاره به ذات اتجاه عقدي بحيث تمنع نفوس الأتباع من الضعف والتراجع امام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم وبأن نسبه يرجع ضارب في أعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعلقة بالإمامة أن يرشح ثقة أتباعه به، وأن يضمن ولائهم الدائم، وطاعتهم المطلقة[1]، ولم ينس أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقصى، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولاينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة. وأقنعهم بأنهم القيادة المثلى لهذه القبائل[2].

٤- المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه، أصدر إنذاره وتهديده إلى المرابطين: "قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فاستعين بالله على قتلكم...)[3]. وكانت هذه الخطوة تمهيداً منه نحو قتال المرابطين، وحرص

---

(١) تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت ص (١٢٧)

(٢) انظر: معالم في تاريخ المغرب د. حسين مؤنس ص (١٧٧)

(٣) الحلل لابن الخطيب ص (٨١)

على ترسيخ عقيدة الجهاد وحببه لجنوده، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض علىالصحابة جهاد الكفرة "فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لايحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لاتتبدل ولاتتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر لاعذر لأحد في تركه ولاحجة له عند الله، فإنهم سعوا في هدم الدين، وإماتة السنة"[1].

ولما بذل ابن تومرت جهده في اعداد أصحابه اعداداً عقدياً جعل يعد العدة المادية، فجعل يجمع المقاتلين متخيراً الأقوياء الصادقين وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه، ومن أعالي جبال الأطلس واصل ابن تومرت حملته الإعلامية التشويهية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسل الحسام لإخماد تلك الفتنة، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال واستغل ابن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم، وما فعله ينتان في حقيقته هروباً وخوفاً من لقاء الموحدين وتعاظم خطر ابن تومرت واستمر علي ابن يوسف في إرسال الحملات تلو الحملات لاستئصال شأفته، ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ومن هذه الحملات حملة أبي إسحاق إبراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قتال وتعقبتهم القوات الموحدية وقتلت أعداداً كبيرة منهم وغنموا حملتهم. وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو أيضاً هزيمة إلى سجل الهزائم

---

(١) الرسالة المنظمة ص (١٠٥)

المرابطية على يد الموحدين[1]، وكان ابن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: "انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ماجاؤوا به من خيل وعدة، إنما هو هدية من الله تعالى لكم، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم"[2] وكان ينزل في المعارك بنفسه ويبدو أن ابن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية، فقد تمرس بالقتال في الميدان وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة، كما تعرض إلى جراحات السيوف وكثيراً ماكان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقي العالية، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة.

ولكي يكون ابن تومرت وعسكره في منعة من مباغتة الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقراً منيعاً هو مدينة تينملل التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: "لايعلم مدينة أحصن منها، لايدخلها الفارس إلا من شرقها، وهو الطريق إليها من مراكش، المصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد"[3].

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذيوع عقيدة المهدي وظن كثير من الناس بأنه ابن تومرت وبذلك كثر أتباعه، وعظم ثقته بنفسه وقوته، فأرسل إلى علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها

---

(١) انظر دولة المرابطين تأليف سلامة محمد سلمان ص (١١٣)

(٢) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين د. حمدي عبدالمنعم ص (١٠١)

(٣) انظر: تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت ص (١٢٩)

تهديد ووعيد، فيما يلي نصها: "من القائم بدين الله العامل بسنة رسول الله محمد بن عبدالله وفقه الله، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد فإنا ماوجدنا لأكثركم من عهد، وان وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشوا عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذين غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بادحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين لاتغتروا فان المسلمين إليكم قادمون، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولاتؤمنون بلا إله إلا الله، وإنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فئ وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن"(١) لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين.

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية في الأندلس، وتعبث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب.

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم، منها الاستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين، وقد ساعدته وعورة

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق ص (١١)

أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة. كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة، بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة، فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم، وعدم وضوح الهدف، فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه، بعدما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وأنه هو المهدي. كل هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام[1].

وازدادت ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيقه تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته وإما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيها: "الى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فإن أديتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحو آثاركم ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خالياً

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١١٤)

والجديد بالياً، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السنة لإسلام الرضا)[1].

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وقد ارتكزت استراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة.

فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالإنقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له فأوعز في عام ٥١٩هـ/١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي - الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم أن يظهر ماليه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت، وكان الونشريسي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ أسماء مَنْ شَعَرَ أنهم يشكون في مهدية ابن تومرت، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين فدفعها إلى الونشريسي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهدية. ثم قال اعرض عليّ أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله تعالى ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي، وكان المهدي قد وضع فيها

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١١٥)

رجالاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وقف على رأسها قال: "ياملائكة الله إن عبدالله الونشريسي قد زعم كيت وكيت" فقال من فيها صدق، فصدقه الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح ان طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها.

ونادى ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز، وأخذ الونشريسي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر(١)، فيقول هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل إنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره(٢).

وعلم ابن تومرت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لاتطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين، فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش. وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون وحصنوها بالقلاع، على أي حال صمم ابن

---

(١) الغمر: هو الغير المجرب

(٢) انظر ابن خلكان (٦/٥٢ - ٥٣)

تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش، فـأخذ يسـتدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل علـى ابـن تومـرت وقـد اسـتعدت للقتـال وتجمـع منهـم نحـو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب منهم رجّالة، وقدم عليهم الونشريسي ووجههم نحو مراكش فبدؤوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ/١١٢٧م. وقبـل وصـولهم إلـى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم.

وضـرب الموحـدون الحصـار حـول مدينـة مراكـش مـدة أربعين يومـاً على أرجح الروايات(١). وطوال فترة الحصـار كانت تدور رحى معارك ضارية بيـن المرابطيـن المدافعين عـن عـاصمتهم والموحديـن الذيـن كـانوا يتمتعـون بـروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصـار الموقعـة التـي خـرج فيها أمير المسلمين علـي يوسـف لفك الحصـار عـن عاصمتـه ولكنـه لـم يوفـق وتشتت شمل جيشه، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسـعها أبـواب مراكـش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبدالله بـن همشـك الـذي كـان مـع أصحابـه الأندلسـيين المئـة محصـوراً داخـل المدينـة، فخـاطب أمـير المسـلمين قـائلاً: (مـانعير إلا بالمقام تحـت الحصـار). فأوضح إليه أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليـس مثـل قتـال النصـارى، فـأكد إليـه ابـن همشـك بأنـه يعرفهـم لوجـود نخبـة منهـم فـي الأندلـس، وبيــن لأمـير المسلمين أنه مازال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة، وأن البقاء على هذا الحـال لايكـون إلا مـع قلـة العـدد، ثـم عـرض رغبتـه عليـه بـأن يعطيـه

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١١٨)

ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له. وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده لتتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة، فرأى أن يقصروا رماحهم، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس من رؤوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار[1] وأرسل امير المسلمين علي بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالبا المدد والعون، فجاءت إليه النجدات من كل صوب، وكان أعظمها القادم من سجلماسة بقيادة واليها وانودين بن سير. وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات، وقدم أبو محمد بن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف[2].

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه، فرد امير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجب أي طرف للآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية وعبدالمؤمن امام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة. وماهي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريسي، فخلفه عبدالمؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك،

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١١٩)

(٢) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (١٨٨)

والبستان عندهم يسمى البحيرة[١] وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ففر عبدالمؤمن بنفر يسير لايتجاوز الأربعمائة مابين فارس وراجل. وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبدالمؤمن كان قد واراها فوراً فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء[٢].

وتابع عبدالمؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينملل. وعندما وصل إلى هيلانة[٣] استعاد أنفاسه وحشد جنوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضاً وقتل من أتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينملل وكان البيذق قد سبق عبدالمؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبدالمؤمن فقال هو حي، فرد معزياً الأمر باق، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم: سير بن ورابيل، ومسعود بن وزتيغ، ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان إلى تينملل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين. وتقابل الطرفان بموقع يقال له ابكر متاع بني كوربيت، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما. ويعلل البيذق[٤] ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا إلى مراكش.

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٥٦٥/٦)

(٢) ابن خلكان (٥٣/٥)

(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن في القرب من مراكش

(٤) أخبار المهدي ابن تومرت ص (٣٩-٤١)

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله... وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم. عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته. فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: "قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فإن مادعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق"، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة. ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سوياً إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم مايقولون. ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً: يامعشر الشهداء خبرونا مالقيتم من الله عزوجل. فقالوا: وجدنا مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم، لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعوا سره فيفتضح أمره فتكون

كارثة عليه[1].

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي منيت بها قواته ماهي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤هـ، ١١٣٠م[2] وتذكر المصادر الموحدية أنه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم واعداً إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبدالمؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له مادام مطيعاً لربه[3].

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبدالمؤمن بن علي للصلاة، وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينملل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبدالمؤمن بن علي وصلى عليه، ودفنه سراً بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبدالمؤمن بن علي[4].

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٢)

(٢) انظر: نفس المصدر ص (١٢٢)

(٣) نفس المصدر ص (١٢٢)

(٤) انظر: المعرب الكبير (٢/٧٨١)

بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لهولها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة.

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها، وليدفع بقبيلته مصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف.

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادية في ذلك الوقت. فقد كان على قسط وافر من العلم، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة، ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه. كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم، وساعده في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأملى عليها مايريد فانقادت له مبهورة.

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق أهدافه سذاجة المجتمع وجهله، وما عشعشت في ذهنه من الأساطير وانحرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت، فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة فتقبلوها دون نقد أو تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً.

ومن افتراءات ابن تومرت دعواه أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وإن من لايؤمن بمهديته فهو كافر وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه[1]، وأحدث في أذان الصبح (أصبح ولله الحمد)، وتطاول وادعى أنه يعلم الغيب[2].

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لايمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية بهدم عقيدته بمعاول الحق والحجج والبراهين وقد بينت ذلك[3].

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ماكاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلناً في مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدي ابن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع، كما أسقط من السكة ومن الخطبة، وقال لاندعوه بالمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق[4] وبناء على هذا الإعلان حذف اسم "المهدي" من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ "القرآن حجة اللـه" في المركز، وفي الهامش نقش اسم "خليفة الموحدين المأمون"[5] إن عقيدة أهل السنة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الإفريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها ﴿فأما الزبد

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٤)

(٢) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ص (٢١٦)

(٣) انظر: الفتاوى (١١/٤٩٢)

(٤) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٥)

(٥) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس ص (١٩١) رسالة ماجستير

فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...﴾.

إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفاً أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق ألفونسو السادس وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدؤوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى في هذا الوقت استطاع ابن تومرت بواسطة المؤمنين بمهديته أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكاً(١).

إن رجال الأصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات أما الذين كذبوا وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض، وكفّروا المسلمين الأولى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد، وإنها لمغالطة تاريخية وخيانة للأمانة العلمية عندما

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٦) لقد استفدت من كتاب تجربة الأصلاح في حركة المهدي ابن تومرت للأستاذ عبدالمجيد النجار ودولة المرابطين للأستاذ سلامة محمد سلمان الهرفي في مبحث المنهج التربوي والسياسي والعسكري عند ابن تومرت وغيرها من المراجع وهذا للامانة العلمية .

نضفي على المفسدين ثوب الأصلاح ونجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام إن حركات الأصلاح في التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسنة نبيها، واستوعبت فقه التمكين، واخذت بأسبابه، وحرصت على تنفيذ شروطه جديرة بالدراسة الواعية من اجل إخراج فقهاً للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية وانها لكفيلة بربط الحاضر بالماضي، وجديرة بإثراء واقعنا بفقه بناء الدول، وأسباب النهوض وعوامل السقوط، وكيفية الأخذ بأسباب النجاح واتقاء المزالق.

الفصل الثاني

عبدالمؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده

المبحث الأول

عبدالمؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه:

عبدالمؤمن بن علي بن عَلَوي، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين، الكومي، القيسي، المغربي.

ولد بأعمال تِلِمسان. وكان أبوه يصنع الفخار[(١)].

قيل: إنه قال: أعني عبدالمؤمن: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مُضر بن نزار، ولكومية علينا حق الولادة، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي[(٢)].

وكان الخطباء إذا دَعَوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيمُهُ في النسب الكريم، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربع مائة[(٣)] وصفه الذهبي فقال: (وكان أبيض

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٦/٢٠)

(٢) نفس المصدر .... (٣٦٦/٢٠)

(٣) نفس المصدر .... (٣٦٧/٢٠)

جميلاً، ذا جسم عَمَمٍ[1]، تعلوه حمرة، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوريّ الصوت، فصيحاً جَزْل المنطق، لايراه أحد إلا أحبه بديهة، وكان في كبره شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كثّ اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شَثْن الكفّ، أشهل العين.

أ- لقاؤه بمحمد بن تومرت :

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبدالمؤمن، فحدَّثه وانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم. قال: قد وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه، وأحبه، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النُّبل[2] وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

تكاملت فيك أوصاف خُصِصت بها
فكلنا بك مسرور ومغتبطُ
السن ضاحكة والكف مانحة
والنفس واسعة والوجه منسبط[3]

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاّب الدول لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبدالمؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة، وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعة عبدالمؤمن في كل مايقول، وأن يقتدوا به في كل ما يفعله، وكان عبدالمؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل مايقال له من تعليم وتدريب،

(١) عِظَمُ الخلق في الناس وغيرهم
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٨،٣٦٧/٢٠)
(٣) انظر: النجوم الزاهرة (٣٦٣/٥)

فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس[١].

ب- بيعته:

بايع أصحاب ابن تومرت المقربين عبدالمؤمن بن علي في شهر رمضان ٥٢٤هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة، لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ثم بايع الموحدون عبدالمؤمن البيعة العامة قيل في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ وقيل ٥٢٧هـ وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبدالمؤمن لزعامتهم لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه، وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة، وإلى مالمسوه من فضله وعلمه ودينه، وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته[٢]. وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته أشار فيها إلى تولية عبدالمؤمن من بعده: (استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمَّين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إينتي، وعبدالله بن سليمان، فحمد الله، ثم قال: إن الله - سبحانه، وله الحمد - منّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصّكم بحقيقة توحيده، وقيض لكم من ألفاكُم ضُلالاً لاتهتدون، وعُمياً لاتبصرون قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، فهداكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيُورثُكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأرُوُه من الشكر قولاً وفعلاً مما

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي للغنيمي (٣/٢٠٣، ٢٠٤)

(٢) انظر: تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم (٤/٢٠٨)

يزكي به سعيكم، واحذروا الفرقة، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذُّلُّ، واحتقرتكم العامة، وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجُلاً منكم، وجعلناه أميراً بعد أن بلوناه، فرأيناه ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا - وأشار إلى عبدالمؤمن - فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه فإن بدّل ففي الموحدين بركة وخير، والأمر أمرُ الله يقلِّده من يشاء. فبايع القوم عبدالمؤمن، ودعا لهم ابن تومرت)[1].

وقال بن خلكان[2]: ماستخلفه بل أشار إليه وما قاله الذهبي نقله عن عبدالواحد المراكشي[3].

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبدالمؤمن ألا وهو أن عبدالمؤمن، كومي وليس من المصامدة وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

وما أن أعلنت طبقة الجماعة، وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبدالمؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ولذلك لم يستطيع بادئ الأمر أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن وكان الموحدون

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٩/٢٠)

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٢٣٩/٣)

(٣) انظر: المعجب ص (٢٨٥، ٢٨٧)

الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه، فهم لم يتركوا لعبدالمؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال عبدالمؤمن ويتجرؤون عليه، وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبدالمؤمن، لمّا جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه إلا أن غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبدالمؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبدالمؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك[1]. ويروي البيذق هذا الحادث ضمن أخبار سنة ستة وثلاثين وخمسمائة (٥٣٦هـ) فيقول: "وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد، وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فتغابر إبراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقتله محمد بن أبي بكر ابن بيكيت. فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكاك وقالا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت عند ذلك الخليفة..)[2].

لقد أسرّها عبدالمؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت، ووضع نظاماً جديداً يكرّس الولاء لشخصه وأسرته، وسنرى ذلك بإذن الله ويبدو أن عبدالمؤمن لايعتقد اعتقاداً راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ماوضعه ابن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءاً من هدفه.

لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحاً هذا خليفة الموحدين يقتل أخاه

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص (٥١،٥٢)

(٢) أخبار المهدي للبيذق ص (٩٣)

ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة وكل من في الأرض عبيد لهم، لاشك أن ذلك الحدث أثر في عبدالمؤمن بن علي.

ثانياً: قتال عبدالمؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب:

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبدالمؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة الفاصلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في رأب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ماروواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياماً ثم ارتحل عنها[١]، غير أن ابن القطان[٢] وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبدالمؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازا جورت وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط وقيل يحيى بن مريم الزرجاني[٣]، فتمكن عبدالمؤمن من اقتحام الحصن، وقتل واليه، وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس د. مهدي عبدالمنعم ص (١١١)

(٢) نفس المصدر ص (١١١)

(٣) نفس المصدر ص (١١١)

الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس. رحل عبدالمؤمن عن تازجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور، وصحبها معه إلى تينملل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد، بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبدالمؤمن إلى درعة واستولى عليها، كما استولى في نفس العام - ٥٢٦هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جنجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أجلاحال، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته في يوم العيد، فجمع عبدالمؤمن أهلها وقتل منهم مايزيد على ثلاثمائة رجل، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية، من هزرجة قوامها مائتي فارس وخمسمائة راجل، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجأوا إلى الحيلة فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطؤوا معهم على فتحه، فأقتحموه ليلاً، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين[1] عاد عبدالمؤمن إلى

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (١١٣، ١١٤)

تينملل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، إن دلت على شيء فانما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان مايزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبدالمؤمن، وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لاتزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبدالمؤمن، وأعني بهم أصحاب ابن تومرت العشرة وتتلخص هذه الحادثة في اقدام عبدالله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبدالمؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينملل غازياً، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن ابن ملوية، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينملل، غير أن عبدالله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة، وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه، وحملا جثته إلى تينملل حيث صلبت، ولما عاد عبدالمؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها(١).

ويبدو أن عبدالله بن ملوية لم يكن متطلعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة، وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور مارسه ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي بن يوسف.

---

(١) انظر: تاريخ المغرب في الأندلس ص (١١٤)

وفي عام ٥٢٦هـ حدث أمراً عظيماً يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي[١] ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية وكان في بداية أمره شقياً وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل، وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة، وعاد إلى طاعة المرابطين، وفي عام ٥٢٨هـ قتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام ٥٢٩هـ سار عبدالمؤمن لغزو بني بيغز وظل عبدالمؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوماً، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينملل، واستمر الصراع عام ٥٣١هـ، ٥٣٢هـ وفي هذا العام ٥٣٢هـ تحرك عبدالمؤمن من تينملل إلى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمدة عند وادي أبي حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبدالله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكرت بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيى بن

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص (١٢٧)

فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبدالمؤمن بن علي وطلب منه عسكراً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبدالله بن يحيى بن أبي بكر، فأمده بقوة موحدية، أغار بها على محلات عسكر المغرب، وألحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للمرابطين، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفي، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجدة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير ابن علي بأن عبدالمؤمن يريد بلاد غمارة، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية مايقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبدالمؤمن. وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناتة واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين، فأرسل عبدالمؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة(١).

وفي عام ٥٣٣هـ تحرك عبدالمؤمن بن علي من تينملل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، وكان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة، وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبدالمؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص (١١٧)

أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدزران ثم إلى بني سوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبدالمؤمن إلى أجر فرجان، فتبعه تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت، فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد، وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مدداً لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعوا في انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبدالمؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة، وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ماسمعوا قرع الطبول. نجحت خطة عبدالمؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما توسطوا مواضع الكمائن، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبدالمؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام ٥٣٤هـ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين وانضمت إليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور مايقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام ٥٣٥هـ (١١٤٠-١١٤١م)، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبدالمؤمن بن علي في مكان يسمى امسيميصي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل وقيل ان اللقاء حدث بجبل خدميره، ولايذكر البيذق، نشوب معركة بين الجانبين وانما يؤكد ان كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذارى حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً إلى مراكش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبدالمؤمن بموضع يسمى اكظرور، فهزم المرابطون، وارتد الروبرتير في فلوله جريحاً إلى مراكش، وعاد عبدالمؤمن إلى تينملل[1].

واصل عبدالمؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام - ٥٣٥هـ - وحاصر حصن تينلين، وكان يدافع عنه واليه المرابطي يركين ابن وبدرن، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبدالمؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها ايرمناد، وتاسلولت وتيونوين وايجلي وغيرهم وفي نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيغايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش. أما عبدالمؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياه فيها " تما كونت " ابنة ينتان بن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها، وذكرته

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٠

بشفاعة أبيها ينتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان ماراً بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به، فلم يتردد عبدالمؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبدالمؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينملل رأى عبدالمؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدين على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها وإسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية ٥٣٥هـ ويورد البيذق وكان شاهداً عياناً لأحداث هذه الفترة وصفاً دقيقاً لحملة عبدالمؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف إلى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في أثره، وإنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مروراً ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو " واويزغت " دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فيها الدائرة على المرابطين. ثم تقدم الموحدون إلى "داي" فولى حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين، وواصل الموحدون زحفهم صوب "تازاكارت" ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها، فدخلها الموحدون، واتخذها عبدالمؤمن قاعدة لقيادته، وجه منها عدداً من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين إلى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبدالمؤمن. وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة

الموحدين وأقام عبدالمؤمن فترة في أزرو حيث تزوج من إحدى نسائها. واصل عبدالمؤمن زحفه، فخرج من أزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي آزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبي آزرو، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة، فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدين. وفي أوائل عام ٥٣٦هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبدالرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمتها، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي. وفي هذا الاثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لاستنقاذها، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيى، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلتهم على سفح جبل عفرا، بينما عسكر المرابطون في موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا. ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان شتاءً قاسياً تعرضت فيه المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى، حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلة الأقوات والوقود في كل من المعسكرين وبلغ سعر الشعير في معسكر الموحدين وفقا لقول البيذق ثلاثة دنانير للسطل، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل. ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون

زحفهم فكان أول موضع قصده عبدالمؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع إلى الشمال الشرقي من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في أثر الموحدين، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا في طاعتهم. وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها، وأصبح العسكران كفرسي رهان، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له "تازغدرا" أسفرت عن قتل عدد من القوتين، ارتد الروبرتير على أثرها إلى بني تاودا بينما سار الموحدون إلى "تاغزوت" ومنها إلى بني مزكلدة، ثم إلى ايلانة ثم إلى ايجن. وفي ايجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والإخلاص لمبادئ ابن تومرت، وطاعة عبدالمؤمن، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى "بجدار نمضى"، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف، مروراً بتا مقريت ووادي لو أرض بني سعيد. ومن وراءهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان، في الوقت الذي وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط، ومكنت نفوذها في تلك النواحي، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تمسامان، حيث وجه عبدالمؤمن قائده عبدالرحمن بن زكو في قوة من الموحدين لغزو مليلة، فاقتحمه وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كوميه، قبيلة عبدالمؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقاً إلى تاجرا مسقط رأس عبدالمؤمن، وفي هذه البلدة وجه عبدالمؤمن ثلاث حملات الأولى بقيادة عبدالرحمن بن زكو،

وجهتها ثغر وهران، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه، والثانية بقيادة الشيخ أبي إبراهيم اسماعيل، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان، والثالثة بقيادة يوسف بن واندوين وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان، فخرج اليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر، ومحمد بن يحيى بن فانو، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهر وابن فانو، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم، على قوى المرابطين وان كانت كلفتهم كثيراً طوال حياة أمير المسلمين علي بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيبته في نفوس المرابطين، ثم جاءت وفاته سنة ٥٣٧هـ بداية لنهاية دولة المرابطين[1]، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشؤون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس، ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (٥٣٨هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين فانضمت مسوفة إلى الموحدين. وفي عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م تمكن عبدالمؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي الربرتير ودخل تلمسان وفي ٢٧ رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي ١٤ ذي القعدة ٥٤٠هـ دخل الموحدون فاس، وفي ١٨ شوال تمكنوا من دخول مراكش[2].

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ص (١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤)

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/٧٨٣ - ٧٨٦)

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم وقد صور صاحب الحلل الموشية[1] ذلك بقوله: (وتأججت نار الفتنة بالمغرب، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن، وعم الجدب، وقلت المجابي، وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدوة ونقل اليها كثير من أسلحتها وعددها، فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واختل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي، فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال)[2].

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبدالمؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لابد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط.

---

(١) مؤلفه مجهول .

(٢) الحلل الموشية ص (١٢) .

ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس :

بعد أن احتل عبدالمؤمن بن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيى بن علي بن غانية المسوفي والى الأندلس، فلقيه بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي، فقام بأمر سبتة وشكل حلفاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودكالة، فاضطر عبدالمؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته، ثم عاد إلى مراكش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه، فعفا عبدالمؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه(١).

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى واستتباب الأمر لعبدالمؤمن وجه نظره إلى الأندلس، وكان كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلن ثورته وانفصاله عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام ٥٣٩هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠هـ، كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبدالمؤمن بمراكش عام ٥٤١هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/٧٨٨)

الموحدين فسير عبدالمؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان ٥٤١هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت إشبيلية في سنة ٥٤١هـ تحت لوائهم بعد ان اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث ان نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقى أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبدالمؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة ٥٤٣هـ ولم تبدأ سنة ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبدالمؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام ٥٤٦هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة ٥٤٩هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون ابن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبدالمؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية براً وبحراً وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخية أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد ان احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. وحاول ألفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار، فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، والي إشبيلية فازدادت قوة الموحدين بقدومه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى "العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل". وولى عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة ٥٥٢هـ وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القصبة، واستولوا عليها في سنة ٥٥٢هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها[١].

وفي سنة ٥٥٥هـ أمر عبدالمؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى أثر ذلك جاز

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٧٩١/٢)

عبدالمؤمن مـن طنجـة إلـى الأندلـس، فـنزل بجبـل الفتـح وأقـام شـهرين أشـرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيتـه ثـم أمـر بغـزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبدالله بن أبي حفـص مـن قرطبـة، ففتـح حصـن أطرافكمـش مـن أحـواز بطليـوس، واسـتولى الموحـدون علـى بطليـوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبدالمؤمن بعد ذلك إلى مراكش[1].

رابعاً: فتح المغربين الأدنى والأوسط:

تمت سيطرة الموحدين علـى الأندلـس عـام ٥٥٦هـ وكـانت أخبـار المغـرب الأوسط والأدنى تصل إلـى خليفـة الموحديـن عبدالمؤمـن مـن اختـلاف الأمـراء وتطاول العرب من بني سليم وهـلال علـى إفريقيـة بـالعبث والفسـاد، كمـا بلغـه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة ٥٤٦هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيى بن عبدالعزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمـادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة، فخرج إليه الأمير الحسن بن علـي ابن يحيى بن تميم، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهدية فـي أيـدي النورمـان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدوم عبدالمؤمن بن علي خـرج للقائـه فتلقـاه بحفاوة بالغة، وصحبه في غزو إفريقية ثم سار عبدالمؤمن نحو بجايـة، فـأخرج يحيى بن العزيـز أخـاه سبع للقـاء جيـوش عبدالمؤمـن، فـانهزم هزيمـة نكـراء، ودخل الموحدون بجاية ولمـا رأى يحيـى أن لا طاقـه لـه بمحاربـة عبدالمؤمـن، هرب في البحـر إلـى صقليـة لقصـد الانتقـال منهـا إلـى بغـداد، وحمـل معـه مـا استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عـن ذلـك ونـزل فـي

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/٧٩٢)

بونه على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبدالمؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمنع، واقتحمها عنوة، فخربها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز، ولما استولى عبدالمؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبدالله، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبدالمؤمن على أن يؤمنه، فأمنه وأصحبه معه إلى مراكش في سنة ٥٤٧هـ وأسكنه بها، ثم انتقل يحيى إلى سيلا سنة ٥٥٨هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة. أما الحسن بن علي فقد صحب عبدالمؤمن في غزواته الأولى إلى إفريقية، كما صحبه في سنة ٥٥٤ في غزوته الثانية، فحاصر معه المهدية، ثم دخلها وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامسنا في سنة ٥٦٣هـ. ثار عرب الأثيج ورياح وزغبة في سطيف على عبدالله بن عبدالمؤمن بن علي من أجل اعادة دولة بني حماد، فأرسل عبدالمؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقى عبدالله بن عبدالمؤمن بهم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما اراد الجواز إلى الأندلس في سنة ٥٥٥هـ أدخلهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة، وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلي شريش وأعمالها، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب

زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من ٥ آلاف فارس سوى الرجالة[١]. وفي هذه الأثناء كان عبدالله بن عبدالمؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة ٥٥٢هـ، فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها، وكان قد استقل بها عبدالله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين[٢].

وتوفي عبدالله بن خراسان أثناء ذلك، فخلفه علي بن أحمد بن عبدالعزيز بن خراسان، وعاد عبدالله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك. فخرج أبوه من مراكش في جيوش لاتحصى في ١٠ شوال سنة ٥٥٣هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهدية، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبدالمؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة ٥٥٤هـ. وكان عبدالمؤمن أثناء حصاره للمهدية قد بعث ابنه عبدالله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأربس من بني فثانة العرب ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً، وافتتح بلاد الجريد كلها[٣]. وعاد

(١) المراكشي ص (٢٢٦)

(٢) انظر: المغرب الكبير (٧٩٥/٢)

(٣) المراكشي، ص (٢٣٠)

بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة[1].

خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخريجه للساسة لضبط نظام الدولة:

أ- عندما استولى عبدالمؤمن على مراكش، قتل المقاتلة، وكفَّ عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى وقال: إن المهدي أمرني أن لا أُقرَّ الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مُخيركم بين ثلاثٍ، إما أن تُسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب، وخرَّب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وأنفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداء بعليٍّ، وليُري الناس أنه لايكنز المال، وأقام كثيراً من معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه، وأزال المنكر، وكان يؤمُّ بالناس، ويتلو في اليوم سُبعاً، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفيء بالشرع فأحبوه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً، فجميع رعيته مسلمون[2].

ورأى عبدالمؤمن أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نظماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسارفي كل ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عدداً من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم

---

(1) انظر: المغرب الكبير (٢/٧٩٩)

(2) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٧٠، ٣٧١)

والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبدالمؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى اضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبدالمؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدّها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه[1].

لقد استطاع عبدالمؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشئ نظاماً جديداً للدولة، إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته. وكان أشد مايعنى به عبدالمؤمن - وهو من أعظم قادة عصره - تنظيم شؤون الحرب والجهاد التي بث فيها بجهوده ومتابعته، نهضة إحياء شاملة وإليك وصفاً لنظام سير الموحدين، وتقسيمات الجيش، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين[2].

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين يوسف أشباخ (٢/٥٠)

(٢) انظر: الآراك د. شوقي أبو خليل ص (٢٩)

المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلى بالذهب، وقد صُنع من خشب رنَّان، فكان يُسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضُرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطوياً أثناء السير، ولاينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتُخَصصّ لغذاء الجند، وكان جيش عبدالمؤمن النظامي يتألف - فضلاً عن الفرسان - من سبعين ألفاً من المشاة، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم، وذلك حتى لايقع نقص في الماء، أو ضيق في المكان، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش أن اقتفى عبدالمؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط. وكان عبدالمؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جياداً مطهَّمة ويتقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثياباً فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة، تبرُكاً وتيمُّناً، وقد وضع في - صندوق - بديع الصنع، محلَّى بصفائح الذهب: مرصع بأروع اللآلئ والاحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز

الأمويين، وبني عباد ملوك إشبيلية، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيه جميعاً وتكدّست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبدالمؤمن، والى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والي تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون[1] الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون[2] وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاة والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص، ثم توزع الأقوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة، على الجند بأنصبة متساوية، فلا يُقتّر على أحد منهم.

يستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

١- إن عبدالمؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.

٢- كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.

٣- وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.

٤- وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه، وكان عبدالمؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن

---

(١) كان لعبدالمؤمن ثلاثة عشر ولداً

(٢) القرن هنا: آلة موسيقية تعتمد على النفخ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره.

تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لايستغني عنه في المعارك.

ومن أعمال عبدالمؤمن: مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثروتها وغلاّتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية والغنية بالخيل تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً - تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها.

وكان عبدالمؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تصنع القسيّ والنُشّاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار[1] وعزم عبدالمؤمن على تغيير نظام الطبقات، ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر غير الموالية له، وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له مؤكد. ومشاغبتها عليه محتمل وقوعه، وخافه الموحدون خوفاً عظيماً، وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات

(١) انظر: معركة الآراك ص (٣٢)

المرابطية. وهؤلاء هم: أبو محمد عبدالله بن محسن الونشريسي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسى بن تماري الكدميوي وأبو يحيى ابن بيكيت وأبو عبدالله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي آصناك، فقد توفي سنة ٥٣٦هـ وقتل عبدالله يعلي بن ملوية سنة ٥٢٧هـ بعد أن خرج على الخليفة عبدالمؤمن. إذ أنه حقد على الموحدين بيعتهم له أما أبو الحسن بن واكاك، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة ٥٤١هـ.

وإذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وعبدالمؤمن بن علي وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين، وغيرها من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتيحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبدالمؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات[1] وبعد أن تخلص من أكثر من (٣٢٠٨٠) شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات، فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضروا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفاً ورهبة مما يخبئه لهم الخليفة. لقد رسم عبدالمؤمن خطته في أناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات واحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله. وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولايكون للموحدين أي شيء. هكذا أصبح عبدالمؤمن خليفة الموحدين

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٥٨)

اسماً وفعلاً.

ولما أن أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي وأعلن عليهم النظام الجديد وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربعة عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات: (فالطبقة الأولى: هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها، واشتملوا بردة شرفها، وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لايوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر، ودخل في هذا الحزب، وانضوى إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران. والطبقة الثانية من فتح وهران إلى هلم جرا. من النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبدالمؤمن ألغى طبقة الجماعة الغاء نهائياً، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شؤون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبدالمؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبدالمؤمن ألغى الطبقات الأربعة عشر، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادي الثانية من سنة خمسمائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة ١١٣٠م.

ومعنى هذا أن عبدالمؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام ابن تومرت ثم إنه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأولى،

وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. وهذه المساواة بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشر الأخيرة في النظام الملغي، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جليلة. وبهذا استطاع أن يكسب ود واخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لاتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحدي واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية، فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ وحتى فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وهذا يعني أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة ٥٢٤هـ وحتى سنة ٥٣٨هـ. سواءً كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو اجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبدالمؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وادراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضا بينهم، واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين. وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أتيحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضا والتأييد للخليفة عبدالمؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدي، بل وفي الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبدالمؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة، تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة ٥٣٨هـ

وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم إن عبدالمؤمن لما أن افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على إمارة بني حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذي وقفوا في وجهه. وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة. وبدلاً من أن يقوم عبدالمؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم، وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيذق قائلاً: "وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراكش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس ابن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة تأمرنا بالرجوع إليك. فقال لهم الخليفة مجاوباً لهم نحن نصل إليكم وردهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام ٥٤٧هـ"(١).

هذا بالاضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده،

---

(١) البيذق أخبار المهدي ص (١١٦)

كما إنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولائها. كما وإن جلبه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة[1].

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم وحرضهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال:

أقيموا إلى العلياء هوج الرّواحل
وقودوا إلى الهيجاء جُرْدَ الصواهلِ
وقوموا لنصر الدين قومة ثائرٍ
وشدوا على الأعداء شدة صائلِ
فما العِّز إلا ظهرُ اجرد سابح
وأبيضُ مأثورٌ وليس بسائل
بني العمِّ من عليا هلال بن عامر
وما جمعت من باسل وابنِ باسل
تعالوا فقد شُدَّتْ إلى الغزو نيَّةٌ
عواقبُها منصورةٌ بالأوائل
هي الغزوة الغراءُ والموعدُ الذي
تنجَّزَ من بعدِ المدى المتطاولِ
بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى
بها نُنْصِفُ التَّحقيقَ من كلِّ باطلِ

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠)

فلا تتوانوا فالبدارُ غنيمـــــــــــــةٌ

وللمُدْلج السّاري صفاء المناهلِ[1]

وكانت الشعراء تقصد عبدالمؤمن لمدحه، ولما قال فيه التِّفاسي قصيدته:

ماهزَّ عطفيه بين البيض والأســلِ

مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر لـه بـألف دينـار[2] ولمـا سـار عبدالمؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق، وسمّاه جبـل الفتـح، فأقـام أشـهراً، وبنـى هناك قصوراً ومدينة، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً:

ماللعدى جُنَّةٌ أوقى من الهرب

أين المَفَرُّ وخيلُ الله في الطـلب

وأين يذهب من في رأس شاهقة

وقد رمته سهامُ الله بالشُّهُـــــب

حدِّث عن الروم في أقطار أندلسٍ

والبحر قد ملأ البرَّينِ بالعَرَبِ

فأعجب بها عبدالمؤمن وقال: بمثـل هذا يمـدح الخلفـاء[3]. وبعـد أن أطمـأن عبدالمؤمن إلى سـلامة الخطـوات التـي اتخذهـا فـي سبيل أن تكـون لـه السـيادة الكاملـة فـي الدولـة، وضمـن تحطـم نفوذ الشـخصيات البـارزة فـي مجموعـة الموحدين، وتأكد لـه ولاء أغلـب الطبقـات فـي النظـام الجديـد، وبعـد أن ضمـن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها فـي أحـواز مراكش،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٣/٢٠)

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٠/٢٠)

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٢/٢٠)

أقدم على الخطوة الخطيرة التي مافتئ يستعد لها ويمهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتولية أحد أبنائه ولياً لعهده[1].

وفي عام ٥٤٩هـ أعلن عبدالمؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد ولياً لعهده وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: "ولكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها... وكانت العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها، حاضرة وبادية من أهل إقليمها وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم، ويعلمون أنه غاية اقتراحهم، ومادة نفوسهم وأرواحهم ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه. وأعلموا أن محمداً – وفقه الله – هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وانفاذه معهم على قصده في توليته مرادهم... فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم في ذلك الأمر المسؤول ونعارضهم فيه على

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص (٦٠)

الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين، بأتم وجوه الالقاء والتوصيل، فكان ذلك على ما أقصد وذكروا في الأمر على ما أتوخى فيه واعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما اعتقد... وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى - أعزه الله بتقواه - هذا أمر نحن أَولّى بتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه. ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه. فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعيا.. وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود وفي نفوس جمهورنا موجود وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد... وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم وسرى النعيم بها في أبشارهم ومناتهم، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر اخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل"[1].

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط أولها: أن عبدالمؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم.

وثانيها أن هذه الفكرة إنما أثارتها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية. وهي التي لم تكتف بإثارة الموضوع، بل وألحت عليه. ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدين، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل هذه القبائل أن تبدي رأيها عنها وتتدخل فيها. فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي

(١) انظر: سقوط الموحدين ص (٦٢)

أخضعت بحد السيف. وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع، يثير الشك بأن الخليفة عبدالمؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثير وتلح عليه.

والنقطة الثالثة، هي أن الموحدين وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة في حضرته، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد النية والعزم عليه. والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبدالمؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة المرابطين ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد وتقديم البيعة لولي عهده، النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر واقع، ولذلك بادر بإظهار الرضا عن هذه البيعة، وكان أول المبايعين لابن عبدالمؤمن، وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبدالمؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبدالمؤمن أن يجعل الحكم وراثياً في عقبه، وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبدالمؤمن، ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحدي بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحدي في المعركة. وطمع بنو هلال أثر هذا الانتصار في الموحدين الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبدالمؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل، وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحدي وارتفاع روحه المعنوية، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على

الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبدالمؤمن بفعله ذاك وألقي القبض على يصلتين وقتل في سبتة عام ٥٤٦هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام ٥٤٩هـ حاول أخوا ابن تومرت، عيسى وعبدالعزيز في مدينة مراكش القيام بثورة على عبدالمؤمن، والاستيلاء على مقاليد الحكم، إلا أن المخلصين من أنصار عبدالمؤمن وأهل مراكش أفشلوا تلك المحاولة الفاشلة وكان عبدالمؤمن بعيداً عن مراكش في سلا، وقبض على المتآمرين، وكان تعدادهم الثلثمائة شخص وقتلوا جميعاً وأُعدم أخوا ابن تومرت وفي عام ٥٥٥هـ حاول بيت ابن تومرت اغتيال عبدالمؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت في مهدها وشعر عبدالمؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته، وأمرهم أن يأتوه ركباناً، ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة ٥٥٧هـ إلى مراكش في تعداد تجاوز الأربعين ألفاً، وفرح بهم عبدالمؤمن فرحاً عظيماً، وأنزلهم في مراكش، وأعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه، ويحيط به في تسياره، وبذلك اطمأن على نفسه وعلى حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبدالمؤمن من إبعاد قبائل المصامدة، وشراء خدمات قبائل بني هلال، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبدالمؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في إيجاد تنافس شديد

وتنازع مميت بين أبناء عبدالمؤمن فيما بعد، بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة[١]. لم يكتفِ عبدالمؤمن ببيعة الموحدين لابنه بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين، ظهور التكلات التي ساهمت في اضعاف الدولة، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبدالمؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية، وعبدالسلام الكومي[٢].

شيء من سيرة عبدالمؤمن ووفاته:

١- لما نزل عبدالمؤمن سلا، وهي على البحر المحيط ينصبُّ إليها نهر عظيم ويمر في البحر، عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلةً قبيلةً، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بلّ الدمع لحيته، فقال: أعرف ثلاثة وردُوا هذه المدينةَ لاشيء لهم إلا رغيفٌ واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعَدّي بهم، فقال: لا آخذُه إلا عن اثنين، فقال احدُهم وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبحُ، ففعل، فكان الشابُّ كلما أعيا، دنا من القارب، ووضع يده عليه يستريح، فيضربه بالمجذاف، فما عدَّى الا بعد جُهد

(١) انظر: سقوط الموحدين ص (٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨)

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٦٩)

فما شك السامعون أنه هو السابح، والآخران ابن تومرت، وعبدالواحد الشرقي[1].

٢- ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبدالمؤمن بن علي فقال: (كان ملكاً عادلاً سايساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل وكان يقرأ كل يوم سُبعاً من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير، ويصوم الاثنين والخميس، ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خلق له، وكان سفاكاً لدماء من خالفه سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهما فقالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

ياذا الذي قهر الانام بسيفه

ماذا يضرك أن تكون إلهاً

الفظ بها فبما لفظت فإنه

لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآها وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، فكان عبدالمؤمن يتزيا بزي العامة ليقف على الحقائق فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير، فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له اصدقني أنت قائل البيتين قال أنا هو، قال لم فعلت ذلك قال قصدت إصلاح دينك فدفع إليه ألف دينار فلم يقبلها ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لاتحفلن بما قالوا وما فعلوا

إن كنت تسمو إلى العليا من الرتب

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٣/٢٠)

وجـرد السيـــــف فيما أنت طالبه

فما تــرد صدور الخيل بالكتب[1]

٣- بعد أن أتم عبدالمؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمـارة بنـي حمـاد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمهـا إلـى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقـة شـرقاً حتـى البحـر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظـم بـلاد الأندلـس الإسـلامية، وبعـد أن تـم لـه تعيين ابنه ولياً لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة، وخضّد شوكة افراد بيـت ابـن تومـرت، وعمـل علـى تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقويه ظهره بعصبية قبيلته، شرع فـي الاعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخـول الأندلـس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين ولذلك استعد عبدالمؤمن لهذه الحملة[2].

يقول ابن صاحب الصـلاة: (تـم إعـداد مـائتي قطعـة بحريـة جديـدة فـي دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره مـن الـدور فـي بـلاد المغـرب وسـواحل الأندلـس وهـذه القطـع تعتبر اضافـة لقطـع الأسطول الموحدي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريـب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: "أعد من القمح والشـعير للعلوفات والمواساة للعساكر علـى وادي سـبو بـالمعمورة المذكـورة، مـا عاينتـه مكدسـاً كأمثـال الجبـال بمـا لـم يتقـدم الملك قبلـه.. ونظـر فـي اسـتجلاب الخيـل

---

(١) انظر: شذرات الذهب (١٨٣/٤)

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٧٧)

له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغربته الأذهان ولاتقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين ...)[1].

خرج عبدالدؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوالي مائة الف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا:

١- الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

٢- الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.

٣- الجيش الثالث: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

٤- الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبدالمؤمن ابن علي المفاجئ، وانتظار الموحدين شفائه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة ٥٥٨هـ[2] قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة:

---

(١) ابن صاحب الصلاة ص (٢١٣، ٢١٥)

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص (٧٨)

"فيها مات صاحب المغرب عبدالمؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبدالمؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لايحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفّاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء...)[١].

إن المتتبع لتاريخ عبدالمؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمور السياسية والعسكرية، واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون - على حسب اطلاعي - أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبدالمؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر ابن تومرت، ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبدالمؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت. واصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها وكان ذلك تكتيكاً من عبدالمؤمن لكي يحافظ

---

(١) البداية والنهاية (٢٦٤/١٢)

على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت. إن تـاريخ عبدالمؤمـن يشـير إلـى أنـه لـم يكـن جـاداً فـي الالـتزام الحرفـي لدعـوة ابـن تومـرت، ولعـل ماتحمله دعوة ابن تومرت من شـطط وغلـو فـي بعـض أفكارهـا مـن الأسـباب الرئيسية التي جعلته يحجم عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضـاد له مما يعرض دولته للخطر[1].

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية العدد السادس ص (٥٧٢، ٥٧٣)

المبحث الثاني

أبويعقوب يوسف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبدالمؤمن بن علي، صاحب المغرب.

قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لِطَيْشِهِ، وشُرْبِهِ الخَمْرَ، فخلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شاباً مليحاً، أبيض بحُمرة، مستدير الوجه، أفوه، أعين، تام القامة حلو الكلام فصيحاً، حلو المفاكهة، عارفاً باللغة والاخبار والفقه، متفنناً، عالي الهمة، سخياً، جواداً، مهيباً، شجاعاً خليقاً للملك(١).

أولاً علمه وبيعته:

أ- علمه:

قال عبدالواحد بن علي التميمي : صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان سديد الملوكية، بعيد الهمة، جواداً، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلبها من الأقطار، وكان يصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، فكان لايصبر عنه، وسمعت ابا بكر بن يحيى الفقيه، سمعت الحكم أبا الوليد بنَ رشدٍ الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يُطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٩٩/٢١).

في السماء؟ أقديمة أم حادثة، فخفتُ، وتعلّلتُ، وأنكرت الفلسفة، ففَهِمَ، فالتفتَ إلى ابن طفيلٍ، وذكـر قول أرسطو فيها، وأورد حُججَ أهل الإسلام، فرأيت منه غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم، ولم يزال يبسطُني حتى تكلمتُ، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوبٍ[1].

وقال عنه العلامة شوقي أبوخليل: (أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس ألفاظاً للقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمة، سخياً جواداً، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع ايثار للعلم شديد، وتعطش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم، هذا مع ذكر جميل من الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة والطب .... وجمع مكتبة، كان ما فيها قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمائة ألف مجلد.

ب- بيعته:

يرى الأستاذ الدكتور مراجع عقيله الغنائي أن بيعة يوسف بن عبدالمؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبدالمؤمن والحزب الموالي لهما، وأن أبا حفص عمر بن عبدالمؤمن حرص على أن يسيطر منذ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/١٠٠).

توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة، وأن ينظم كتلة من الموحدين ترتبط مصالحهما به، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمر، بجعل الإمارة لأخيه يوسف بدلاً منه وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ أنما كان يبعد نفسه عن شبهة التآمر، والذي يرجح الفرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه يوسف، أن بعضاً من أبناء عبدالمؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف، فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبومحمد عبدالله والي بجاية، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة. ولذلك لم يستطع يوسف ابن عبدالمؤمن أن يسمى باسم امير المؤمنين وانما اكتفى باسم الأمير. كما وان رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا[١]، لذلك ألغي مشروع العبور إلى الأندلس، وأعطيت الجنود الأمر بالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحدين[٢]، فابن صاحب الصلاة يقول: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم مراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم، وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة، ولم يعلم أحداً بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات. وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، بقراءة الحزب، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص ٨٥.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.

الاشتداد واللزب ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم، وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم.....)[1].

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الأصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم، وصفا الجو بين أبناء عبدالمؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبدالمؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلافي عند الموحدين[2].

ثانياً: سياسة يوسف بن عبدالمؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبدالمؤمن تدور على ثلاثة محاور:

١- **المحور الأول** : استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.

٢- المحور الثاني: العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية.

٣- المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ص٢٣١،٢٣٣.

(٢) انظر: سقوط الموحدين ص٨٨.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها، وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.

ينتسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد والياً للمرابطين على افراغه[1].

تولى محمد بن سعد بن مردنيش : حكم بلنسيه بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ) الموافق ٢١ أغسطس سنة (١١٤٧م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الأولى سنة (٥٤٢هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسيه شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع ممأليك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض الإسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين،، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع ان تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية، وثانيا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان

---

(١) انظر : سقوط الموحدين ص٨٩.

وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب إماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مآل إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه، وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون. ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعباً وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام ٥٦٧ هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية(١).

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين :

فقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الإسبان أولاً ثم أمراء الأندلس

---

(١) انظر : سقوط الموحدين ص ٩٠،٩١.

ثانياً ثم المغاربه ثالثاً، وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش ان يقف فترة طويلة أمام الموحدين وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها[١].

ثالثا : الثورة في المغرب الأقصى :

وفي عام ٥٥٩ هـ - ١١٦٤ هـ قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبدالمؤمن وتزعم تلك الثورة مرزدغ الصنهاجي، وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا، حيث قتل رجالها وسبي نساءها واحتوى أموالها، ولم يتوان خليفة الموحدين في إرسال جيش للثوار ففض جموعهم وقضى على زعمائهم[٢].

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ ٥٦٠ هـ، فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى، قادها سبع بن منحفاد وخلفه

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص٩١،٩٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٧٥.

قبيلة غمارة، وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين، ولذلك خرج لهم الخليفة الموحدي على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنين وستين وخمسمائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلى هذا الجبل. وكانت هذه الهزيمة سببا في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات الموحدين تحرز انتصاراً بعد انتصار، وتلاحق المتمردين من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد، ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره، وكان ذلك في عام ٥٦٢ هـ. وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التي هزت كيان دولتهم وأضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين.

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتي صنهاجة وغمارة، حتى التهبت ثورة أخرى في سنة ثلاث وستين وخمسمائة (٥٦٣ هـ)، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه، وجرد جيش موحدي قوي إلى الثوار، بقيادة السيد أبي حفص عمر، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها.

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد، سواء في المغرب أو الأندلس، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمها الاطمئنان والراحة، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية(١).

رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى :

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص٩٦،٩٧،٩٨.

ابن الرند في عام ٥٧٥ هـ واستطاع علي بن المعز بن المعتز الرندي أن يتخلص من حكم الموحدين في قفصة، وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه منها: ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحدين ونجاحه في الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحدين وكان قراقوش هذا مرسل من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد، وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة، وخاصة وأن قراقوش التقوى اشتهر صيته في إفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات، وانتشار أعمال التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدنى بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم، ولذلك بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبدالمؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام ٥٧٥ هـ، واستطاع يوسف بن عبدالمؤمن أن يحتل قفصة في عام ٥٧٦ هـ ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات إفريقية ومدنها، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها، وبعد ان رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد على ابن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسلماً وتائباً وطالباً للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة[١].

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدين في تشجيع ملوك

---

(١) انظر : سقوط الموحدين ص١٠٠.

وأمـراء الإسبان، علـى الطمـع فـي دولـة الموحديـن، وأحيـت فيهم روح القتـال والحرب التي كادت تنتهي في عهد عبدالمؤمـن بـن علـي ولذلـك تجددت روح العداء للموحدين من جديد(١) .

خامسا: غزو الخليفة الموحدي لبلاد الأندلس :

لما استتب الأمر ليوسـف بـن عبدالمؤمـن فـي بـلاد المغـرب، انصـرف إلـى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى إسبانية في صفر سنة ٦٥٥هـ/١١٧١ م، واستطاع أن يوجه ضرباتـه الشـديدة إلـى ابـن سـعد بـن مردنيش الذي توفى عام ٥٦٧هـ فتنـازل أبنـاؤه عـن أملاكهـم كلهـا للموحديـن، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى، حقق فيهـا نجاحـات رائعـة، ثـم عاد إلى مراكش عام ٥٧١هـ/١١٧٦م بعد أن بنى جامع إشـبيلية، وأدخـل المـاء إليها وأقام جسراً على واديها.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس علـى شـدتها، بريـة وبحرية ولما رأى أبـو يعقـوب يوسـف ضآلـة النتـائج التـي أحرزتهـا قواتـه فـي جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس فـي صفـر ٥٨٠ هــ / ١١٨٤م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء علـى المسـلمين ووضـع خطـة تقضي أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحـف علـى ضفـاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتاله وليون، بينما تنشـغل قـوات إسـلامية أخـرى تزحف من الجنوب بقـوات النصـارى القشـتالية والليونيـة، وسـاعده فـي تحقيـق

(١) انظر: سقوط الموحدين ص١٠١.

خطته حشوده الضخمة، وقوى مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجهاً إلى بطليوس، معتزماً حصار اشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء، ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي إشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم علىقلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية، وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك

البرتغال على شنترين ليلاً في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافاً لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي، وأخيراً ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين[1] ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبقى لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطاً، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من

(١) انظر: الآراك شوقي أبوخليل ص٤٢.

الرجال، واخيراً طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخا بدمائه(١).

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين(٢).

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في ١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ/٢٤أيار (يوليو) سنة ١١٨٤م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبدالمؤمن(٣).

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس :

لم يستطع السلطان يوسف عبدالمؤمن أن يحقق نصرا حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها :

١- لم تكن قيادة يوسف بن عبدالمؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدي وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام ٥٦٧ هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخراً عن وقت وصوله إلى

---

(١) انظر: الآراك شوقي خليل ص٤٢.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: المغرب الكبير (٨٠١/٢).

الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحدي، والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحياناً، فهو قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم انه أثناء مسيره إلى وندة، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

٢- ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان، وكان من المشرّف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

٣- كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخا ة الموحد بدلا من ان يكون مشرفا على تسيير دفة المعارك وهو القائد الو المسؤول الأول، مشغولا بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحدين تحاصر مدينة وندة جاءه أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر، لم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل[1] .

٤- لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحدين ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلهاخصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين.

٥- انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة

---

(١) انظر : سقوط الموحدين ص١٢٠.

في عهد يوسف بن عبدالمؤمن ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها، ونفيهم من البلاد، ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسؤول الأعمال المخزنية في إشبيلية وثبتت عليه خيانته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن في نفسه طويلاً ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام ٥٧٣هـ(١).

٦- انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبدالمؤمن في عام ٥٧١ هـ واستمر لمدة عام تقريباً، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحدين منهم أربعة من أبناء عبدالمؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم، وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهر، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها(٢).

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص١٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٩.

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبـو حفص عمر بن يحي الهنتاتي. وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين وقد كان قادماً من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام ٥٧١هـ. وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس، أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات اثر مادي ومعنوي سيىء على الرعية وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحدين. ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين، ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبث في بلاد الأندلس بالفساد[(١)] "وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة"[(٢)] ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين[(٣)].

٧- تمرد قبيلة هرغة . الخليفة الموحدي: هذه القبيلة ينحدر - منها محمد ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة ٥٧٨ هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس، فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين: الأمر الأول وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت، وخوفاً من التفاف قبائل الموحدين حولها. والأمر

---

(١) سقوط دولة الموحدين ص١٢٩.

(٢) البيان المغرب (٣/١١٠).

(٣) انظر : سقوط دولة الموحدين ص١٢٩.

الثاني: فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهماً لخزنة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزانة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة ٥٧٨ هـ على رأس قواته. ولما وصل الى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته، واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته لقد كان لهذه الثورة أثر في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم[١].

٨- ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدي وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم اصغائه لنصح الناصحين، ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح لملوك وأمراء الإسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارى[٢].

٩- استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم[٣] هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص١٣١.
(٢) المصدر السابق ص١٤٥.
(٣) المصدر السابق ص١٥٤.

ونفوذهم وسلطتهم لقد كان يوسف بن عبدالمؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف ابن عبدالمؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا

ويجري نحوك الأمم استباقا[1]

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى انه مات اثر مرض أصابه أثناء الحصار[2].

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي[3].

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس العبادي ص١١٥.

(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس حسين مؤنس ص١٩٤.

(٣) انظر: نفس المصدر ص ١٩٤.

المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً اسمه وشيء من سيرته:

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبدالمؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب - كان صافي السمرة جداً، إلى الطول ماهو، جميل الوجه أفْوَهَ أعيْنَ شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم أصابة بالظن، مجرباً للأمور ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبدالمؤمن على تقديمه فبايعوه، وعقدوا له الولاية، ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات(١).

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول مارتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر المقاتلين في مراكزها ومهد

---

(١) وفيات الأعيان (٧/٤).

مصالحها في مدة شهرين [1].

أ- إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت[2] وجالس الصلحاء والمحدثين ومال إلى الظاهر، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق مالا يحصى من كتب الفروع[3].

قال عبدالواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها، فتحرق، وتهدّد على الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من "الكتب الخمسة"، و "الموطأ"، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدّارقطني وسنن البيهقي وكان يملي ذلك بنفسه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة [4]. وكان لايحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرّة لعبدالواحد بن علي: (أنا انظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيّها الحقّ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلاّ هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى "سنن" أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف[5]. قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب، والاطلاع مادامت على أصول أهل السنة والجماعة وهذا مافعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين

---

(١) وفيات الأعيان (٧/٤).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٦).

(٣) نفس المصدر السابق (٢١/٣١٣).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢١/٣١٤).

(٥) المصدر السابق نفسه (٢١/٣١٤).

محمود زنكي حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تنشط في دعوتها، ودعّم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفياً، واهتم بالمحدثين ووفر لهم مايحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم، وكذلك القرّاء والحفاظ، وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السنة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب تفجر الثورات الداخلية متواجداً.

لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادئ نظرة معادية اتسمت بالحقد والكراهية، على أنهم من غير أهل الإيمان فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ماجاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: (لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي ومن أخلاق الأدب رضاعتي)[1].

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبدالمؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم واعمله في رقاب الأمم.. ولو أن للعلم لساناً والورقة إنساناً لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح"[2].

---

(١) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، د. علي أحمد ص٨٦.

(٢) نفس المصدر السابق ص٨٥،٨٦.

وهذا أبو الوليد محمد بن عبدالله القرطبي، الذي يصف المقري أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبدالمؤمن بن علي ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فوالله مامصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدّث بقوص بالموطأ ثم قال، ويصلون إلى هذه البلاد ولايحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن ولما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبدالمؤمن فتوجه إلى الهند، حيث ادركته منيته بها سنة ٥٥١هـ وقيل باليمن"(١).

ولله درّ الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكاً يقول: دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يَخْرج ثم يَرجع، فقال: أبو جعفر:- أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلّقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: يا أمير المؤمنين لاتفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأياً هو إجماع أهل

---

(١) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ص٨٧.

المدينة لم أخرج عنهم، غير أني لا أرى أن يعلق في الكعبة[١].

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إنّ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تفرقوا في البلاد، فأفتى كلّ في مصره بما رآه "فلم يزل يُؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهبت تولهم عمّا يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً، فأقِرَّ كل أهل بلد على مافيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك[٢].

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولايمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عند الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت[٣] وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجياني ماقرأت؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت -، قال: فزوروني[٤]، وقال ماهكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت من السُّنة، ثم بعد ذلك قل ماشئت[٥].

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح يقول تاج الدين ابن حمويّة: دخلت مراكش في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد

---

(١) انظر : الإمام مالك بن أنس، عبدالغني الدقر ص١٣٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٣٤.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٦).

(٤) أي انظر إليه نظرة المغضب.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٦).

لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، حسن الصورة، تامَّ الخلقة، لايُرى منه اكفهرارٌ، ولا عن مجالسه إعراض، بزيٍّ الزهاد والعلماء، وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله "فتاوٍ"، وبلغني أن السودان[1] قدّموا له فيلاً فوصلهم، وردّه، وقال: لانريد أن نكون أصحاب الفيل. وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبيٍّ، وعشرة معلمون. حكى لي بعض عُماله: أنه فرق في عيد نيِّفا وسبعين ألف شاة[2].

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمرٌ، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين[3].

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة واهتم بالمرضى وبنى لهم مارستان وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية، وكان يعود المرضى في الجمعة[4].

---

(١) تطلق على بلاد غرب إفريقيا وجنوب الشمال الإفريقي سابقاً.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣١٧/٢١).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق (٣١٥/٢١).

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطبِّ والهندسة[(١)].

وحارب الخمر في ملكه وتوعّد عليها فعدمت[(٢)].

قال عنه ابن كثير: (كان ديناً حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله)[(٣)].

وقال عنه ابن العماد: (ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون التقية ظاهري المذهب معادياً لكتب الفقه أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر)[(٤)].

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع انما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا استبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور انما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطيع أن يفردها دون غيرها حتى لايثير الناس[(٥)].

إن هذا السلطان طلب من أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري - أحد المقربين إليه أن يشهد له بين يدي الله عزوجل بأنه لايقول بالعصمة -

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣١٧/٢١).

(٢) نفس المصدر السابق (٣١٨/٢١).

(٣) البداية والنهاية المجلد السابع الجزء (٢٢/١٣).

(٤) شذرات الذهب (٣٢١/٤).

(٥) ربما هذا التعليل لايكون صحيحاً

يعني عصمة ابن تومرت ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبذ تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أودعا إليه "لأنه لايرى شيئاً من هذا كله وكان لايرى رأيهم في ابن تومرت..)[1].

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاؤوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: "..يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لاقبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم وإليّ ينتسبون"[2].

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة ابن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات، لأن ماتحمله دعوة ابن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها ﴿ إن الله لايصلح عمل المفسدين..﴾ ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...﴾

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص٥٧٥.

(٢) انظر : نفس المصدر السابق ص٥٧٦.

إن المنصور الموحدي لم يعلن صراحة بطلان مادعا إليه ابن تومرت، لأن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لايستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها، ولكن وبالرغم من قلة ماقام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج ايجابية وطيبة، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لاسيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح في تفكيرها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً[(١)].

ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً، لايتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فإن خلفاء الموحدين

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص٥٧٥.

حكموا بلاداً تضاهي ماحكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت أمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يخل الأمر من قوات اندلسية ذات قدرة ومهارة[1].

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شؤون الإدارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى[2].

أ- الصراع مع بني غانية المرابطين:

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة في المغرب الأوسط ضد الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور، واستطاعوا أن يحتلوا مدينة باجيه بأربعة آلاف من الطوارق الملثمين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك، وكان من سوء حظ

---

(١) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص١٩٤.
(٢) المصدر السابق ص١٩٥.

دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيى بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، ثم تولى أخاه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدين سلطانهم على الأندلس ظل بنو غانية لايخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام ٥٦٧هـ /١١٧١م. وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي، وكان على حكم جزر البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية، وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين لكن اخوته عزلوه ورفضوا ذلك، وولوا بدلاً منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الزمن.

ويرجع أصل بني غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين.

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين، وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية، واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا، وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السنة، والدعاء للخليفة العباسي في بغداد، واتخاذ ألويتهم السوداء شعاراً لهم، وهادنوا الموحدين بعض الوقت. ولما مات الخليفة الموحدي يوسف بن عبدالمؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيء استغل بنو غانية هذا الاضطراب وأظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة واستولوا على أسطول موحدي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى المغرب الأوسط

عام ٥٨١هـ/١١٨٥م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوى، وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفع شعارهم وأصبح المغرب الأوسط والادنى تابع وخاضع لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع للقضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وإفريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية اتباع قراقوش، وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش وانكسرت بعض جيوش الموحدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحدين، إلا أن السلطان يعقوب بن يوسف استمر في إرسال الحملات، وفقد الألوف من جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال وكان بنو غانية وحلفائهم قد اتخذوا " سحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء، ثم لا يلبثر ، يعودوا من جديد، واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع أبويوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة، ويقبض على زعمائها، وقاد العمليات العسكرية بنفسه عام ٥٨٢هـ/١١٦٨م وجعل من مدينة تونس مقراً لقيادته، واستطاع بفضل حزمه وشجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية إلى الصحراء، وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤ هـ وانضم إلى جيوش الموحدين كثير من الأعراب والأتراك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غرباً. لقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاة، واهتم بإدارة الأموال، ونقل معه

كثيراً من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة.

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحدي من الداخل، وأمن خطر القبائل العربية، ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سبباً من أسباب انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الأراك الكبيرة. لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته، ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم. وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري(١).

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرة، ألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم، وهذا الهدف السامي الجميل، لا بد أن يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود.

إن تحرير البيت المقدس ما تم ذلك الفتح الميمون إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية.

ب ـ جهاده في الأندلس :

يعد استشهاد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي ٣١/٢٢٤ إلى ٢٢٧.

الأندلس ٥٨٠ هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين :

١- إنشغال الموحدين بثورات قامت في إفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

٢- الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين "مارتن دي بسيرجا" مطرانا لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتاجيج صدور النصارى الإسبان ضد المسلمين، وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة، وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسُبي المسلمون العُزل رجالاً ونساء، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب(١).

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتاله واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال. وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

"باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (٢/٨١).

روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد .. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى"[1].

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزّقه وكتب على ظهر

---

(١) وفيات الأعيان (٦/٧).

قطعة منه: (إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون((سورة النمل، الآية ٣٧١). الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتْبَ إلا المشرفية عنـــده

ولا رُسُل إلا الخميس العرمرم[١]

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس.

ودوّت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقاً على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطىء والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في إسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في

---

(١) وفيات الأعيان (٧/٧).

الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ، ولم يسترح بها إلا قليلاً، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للإستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب إسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأراك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب أتباعها لخوض المعركة[١].

ثالثاً: معركة الأرَكْ:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنه، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه. تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون ونبارة[٢] واستفز كل ملوك إسبانيا المسيحية واستصرخ البابا في روما، وقدمت إليه جيوش من فرنسا

(١) انظر: الأرك، شوقي أبوخليل ص٥٣،٥٤.

(٢) المصدر السابق ص٥٤.

وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربيـة كبيـرة يقودهـا فرسان ذو خبرة عسكرية طويلـة وتجربـة مـاهرة وممتـازة فـي الحـروب ضـد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربيـة التـي احتشـدت فـي مواجهـة القـوات الإسلامية بـ (١٥٠ ألف جندي) تزيد عن ثلاث أضعـاف القـوات الإسـلامية[١]. وتحركت تلك القوات ونزلت فـي الأرك، ونـزل أبـو يوسـف يعقـوب المنصـور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك[٢].

خطة الموحدين :

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب أتباعها فـي المعركـة، واسـتمع الزعيـم لـرأي الجميـع، ثـم التفت إلـى زعمـاء الأندلس، وطلـب رأي أبـي عبدالله بـن صنـاديد، لقد كـان مـن أعقلهم وأخبرهم بمكـائد الحـروب، وكـان أبـو يوسـف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطـط لمحاربـة النصـارى، إذ أنهم يخوضون الحـرب مـع جيرانهم بـلا انقطـاع، فهـم لذلـك أعـرف النـاس بطرق النصارى ومكائدهم، وكـان مـن رأي ابـن صنـاديد أنـه يجـب أن توضـع خطة موحدة لتسيير دفة الحـرب، إذ كـان هـذا التوحيد والنظـام والتنسـيق التـام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وإنـه يجـب أن يختار أمير الموحدين قائداً عاماً للجيش كلـه، فوقـع اختيـار المنصـور علـى كبير وزرائه أبـي يحيـى بـن أبـي حفـص، الـذي امتـاز بالفطنـة وصفـاء الذهـن

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي ص٢٣١.

(٢) انظر: معركة الأرك ص٥٥.

والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم، وهو ما لم يتبع دائماً، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبدالله بن صناديد بان يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها[(١)].

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاّقة عام ٤٧٩ هـ وهذا يدل على اهتمام أبي عبدالله ابن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب،

---

(١) انظر : معركة الأرك ص٥٦.

وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء، ولكن ألفونسو رأى – وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة – أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصاً وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصراً باهراً على جيش الموحدين(١).

وفي ٩ شعبان ٥٩١هـ/٨ تموز (يولية) ١١٩٥ كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارساً بهي الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقوله له : إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوربية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى(٢)، فاحتل الموحدون – أو القوات النظامية – القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبدالله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة النبال، تحت

---

(١) انظر: معركة الأرك ص٥٧.

(٢) المصدر السابق ص٥٨.

أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى(١). وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم : "اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم"(٢).

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم(٣).

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم(٤).

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيّقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعاً عالياً، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال(٥).

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه بحاول اقتحامه على اثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية الآف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على

(١) انظر: معركة الأرك ص٥٨.

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد العضاني (٦/٢٤٠).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر: تاريخ الأندلس لعبدالرحمن الحجي ص٤٨٦.

(٥) انظر: معركة الأرك ص٥٩.

المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ[1].

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: "فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسراباً تتلوها أسرابٌ، وأفواجاً تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال "أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته"[2] لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسما منها، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيداً وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبدالله بن صناديد انقض على النصارى

---

(١) انظر: معركة الأرك ص٥٩.

(٢) انظر: البيان المغرب ص١٩٤/١٩٥.

انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب الجيش القشتالي أصابة دامغة، وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى إنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى(١).

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلولٍ من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: "لا إله إلا الله محمد رسول الله، لاغالب إلا الله". ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته(٢).

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس لأشباخ (٨٦/٢).
(٢) انظر: الأرك ص٦١.

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع مافيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين(١).

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في إشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر(٢)، كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء، وكان عددهم عشرين ألفاً وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأً، لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد، وستسعى للانتقام من المسلمين(٣).

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦ بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية "استراما دورة" وعبر النهر الكبير "الوادي الكبير" في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن

(١) انظر: روض القرطاس ص١٤٥.

(٢) انظر: معركة الأرك ص٦٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة[1].

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها، وساعده على ذلك موقعه القوي، ولذلك استجاب لطلب ملك نافار وليون وعقد معهم حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة، لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش[2].

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يُسعى إليه ويُرتجى
ويُزار من اقصى البلاد على الرجا

(١) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٤/٢١٥).

(٢) انظر: معركة الأرك ص٦٥.

مَنْ قد غدا بالمكُرمات مُقلداً

وموشحاً ومختماً ومتَّوجـــا

عمرت مقامات الملوك بذكره

وتعطرت منه الرياح تأرُّجا[1].

رابعاً: نتائج معركة الأرك :

١- ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.

٢- سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

٣- حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

٤- ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

٥- انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

٦- عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه واعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.

٧- أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وابعادهم.

٨- جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين

---

(١) انظر: النفخ الطيب (١/٤١٩).

وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.

٩- تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك، وترتيب الأمور، ورصّ الصفوف، والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

١٠- دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد، وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي.

وغير ذلك من النتائج.

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك :

لاشك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها:

١- الاهتمام بتصحيح العقيدة، ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا ماقام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت، واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة، وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.

٢- اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

٣- محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر باشراف السلطان بنفسه، ونشر العدل بين الرعية، والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم، وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

٤- فتح باب الاجتهاد، وحارب الجمود، وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه

وألزم العلماء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدوا أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين[1]، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس، وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد[2] ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم[3].

٥- احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبدالواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسيَّر الأمير عبدالواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبدالواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبدالله بن علي بن مر ، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضت بعد ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير

---

(١) كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

(٢) انظر: الأعلام للزركلي (٨/٢٠٣).

(٣) انظر: معركة الأرك ص٧١.

المؤمنين الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبدالواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسيِّر إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبدالله ماهذا إلا جدّ كبير، ثم استدعى خادماً وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهّر وانقاد لأوامره، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل[1].

٦- الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين، وقاد المعارك بنفسه وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

٧- الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبي يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وأعطى لأهل الاختصاص مكانة معنوية، واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى، واعتمد خطة أبي عبدالله بن صناديد ذات الابعاد المتعددة.

٨- الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيين

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٧/١٠،١١).

يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنـاويتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قـائدهم منهم، ويحدث العكس عندما يكون قـائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبدالله بن صناديد.

٩- جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

١٠- الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

١١- إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعة ، العلماء بأن يجمعوا أحاديث في الجهاد لتملى على الموحدين من أجل دراسها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

١٢- تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

١٣- سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور :

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد زنكي بتوحيد الشام مع مصر، وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي، وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة[(١)].

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً[(٢)] جاء فيه:

"الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض، وأغنى من أهلها من سأله الفرض، وأجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض" وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب. ويذكر السلاوي

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم حسن (٢١٦/٤).

(٢) الاستقصا للسلاوي(١٦٣/٢).

أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون[١] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[٢].

ولايبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ماذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لاينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس[٣] وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبا يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع

---

(١) انظر: العبر (٦/٤٩٠).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام (٤/٢١٦).

(٣) المصدر السابق نفسه.

صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض أتباعه وخصوصاً قراقوش التقوى الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال، وابن غانية الذي كان يدعو إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه[1].

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية في مصر ساءهم، لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار، ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد، وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ولاسيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه[2].

وقد أشار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر[3].

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم
أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجباً
أعلى المراتب من بعد النبوة قد
حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

---

(١) انظر: معركة الأرك ص ٧٠.

(٢) انظر: درسات في تاريخ المغرب ص١١٤.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٣١٥/٢١).

سينظم السعد مصراً فـــي ممالكه

حتـــى يدوخ منها خيله حلبـــا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى

أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤملـــــه

وكل عصر له مازال مرتقبـــا[١].

لاشك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولـى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية، لقد صرح سلطان الموحدين المنصـور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر مافيها من المناكر والبدع، وقال نحن ان شاء الله مطهروها. ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله[٢].

إذن فقد كـان الموحـدون يخططـون لغـزو المشـرق كلـه. ولاشـك أن أمـراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغـرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكـون هـذه المراكـز خـط الدفـاع الأول عن إمارات المشرق في وجه الاطماع الموحدية. وكـانت غـزوة قراقـوش علـى المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها[٣].

لقد تحركـت الحمـلات الأيوبيـة نحـو المغـرب واتخـذت الطريـق الصحــراوي،

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب للعبادي ص١١٥.

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ص١٩٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها، ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم، ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم[1].

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص، ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في اكرامه، ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتا أعطاه بكل بيت ألفاً.

ومن القصيدة:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعتـــه
إلـــى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى
الى سمت بالذكر منه الأوائـــــل
إليك أمير المؤمنين ولم تـــزل
إلى بابك المأمول ترجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحـــر موقناً
بأن نداك الغمر بالنجح كافـــل
وحزت بقصيدك العلا فبلغتهـــا
وأدنى عطياك العدد والفواضـل

---

(١) سقوط الموحدين ص١٩٨.

فلا زلت للعلياء والجود بانيـــاً

تبلغك الآمـــــــــال ما أنت آمل[1]

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحدي، ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ، وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة، وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: (... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لاينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل أتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لاتحلّ طاعته، متقلدين لمن لاتصح ولايته"[2].

لو التقى صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ولكن الله غالب على أمره.

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل

---

(١) انظر: معركة الأرك ص ٧٤.

(٢) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عزالدين عمر أحمد موسى ص٣٩. وانظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص١١٧ للعبادي.

المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان. فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين(١).

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصراً لزمن صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دونا عن سائر تجار المسلمين "لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم..." ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة: فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم"(٢).

سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه:

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها والده، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص١١٨.

(٢) راجع رحلة ابن جبير ص٢٧٤،٢٨٠ نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص١١٩.

شامخة على هيئة منارة الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منـارة حسان.

كان عبدالمؤمن بن علي قد هدم مدينة فاس في أثناء حروبه مـع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد علـى إقامـة هـذه المنشـآت هذه الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته[1].

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض إنه بايع ابنه النـاصر بعد عودتـه مـن وقعـة الأرك، ثـم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعـض آخـر انـه ذهـب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام[2].

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبدالواحـد المراكشـي، فقد ذكر ان يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر، وأن ذلك لم يزل عزمـه حتـى مـات فـي مستهل سنة ٥٩٥هـ، ودفن بتينملـل مـع آبائـه ويبـدو مـاذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب[3].

يروى ابن أبي زرع أن المنصور لمـا أشـرف علـى المـوت قـال: مـا ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها :الأولى : إدخال البـدو - العربـان- مـن إفريقيـة إلـى المغـرب، مـع أنـي أعلـم أنهـم أهـل فسـاد، والثانية: بناء (رباط الفتح)، أنفقت فيه بيت المـال وهـو بعـد لا يعمّـر، والثالثـة: إطلاق أسارى الأرك، ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، د.حسن إبراهيم حسن (٤/٢١٧).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثانية، وكتب لربـاط الفتـح أن يعمّر، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصّت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس[1].

لقد توفى هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقـائد الموحديـن عام ٥٩٥هـ[2] فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه.

---

(١) انظر: معركة الأرك ص٧٦.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٩).

المبحث الرابع

الخليفة الموحدي

أبو محمد عبدالله الناصر

توفى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م، وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية المغربية ذلك لأن كثيراً من الناس كذبوا وفاته، وقال البعض إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورنا لجهاد الكفار وقال البعض الآخر بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك. وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل(١) إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد، وخلفه أبو محمد عبدالله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشرة عاماً حيث إنه ولد في عام ٥٧٦هـ/١١٨٠م.

وتولى الحكم عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م وقد كان شاباً طموحاً معتزاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين، واستبد بالأمور، ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد، وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا أن أبا محمد عبدالله الناصر

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٢٣٦).

استبد بالأمر[1].

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين، واستطاع عبدالله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية ذات نفوذ من زمن المرابطين، واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عُدّ وحده بخمسمائة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما أحتل هذا سرقسطة وتطلية وقلعة أيوب.

وليّ علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتنة على

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢٣٦/٣).

المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأمّه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالده في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا جنوب فرنسا- فيغنم وينكى في الأعداء أشد نكاية، واشتد بذلك عوده وقوى أمره، وتشبّه بالسلاطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفى عام ٥٧٩هـ.

وكان إسحاق هذا له سياسه مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم واشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة ٥٧٨هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر، ويتوعدونه إن لم يلبى مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى الدخول أسلم لحماية الأنفس والأغراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى واستطاع الخليفة الموحدي المنصور ان يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه، واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس بحد السنان، ومزق تحالف بني غانية مع

قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبين[1].

ومع وفاة الخليفة الموحدي المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية، وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبدالله ابن غانية قد حاول في عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في إفريقية لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية، وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف ابن عبدالمؤمن، كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألفاً من الرجال، وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفنينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذي حجة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها، وخرج إليهم عبدالله بن غانية، لكنه هزم وقتل، وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش، ثم

---

(١) انظر: العقاب، شوقي أبوخليل ص(١٥،١٦).

تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة، وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وأقيم عليها عبدالله بن طاع الله الكومي والياً عليها، وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا، وأقام الناصر الشيخ عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية. ونستطيع أن نقول: إن عام ٦٠٤هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهاية الد ة لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها، وشتت جموعها وأحلافها وفي عام ٦٣١هـ/٦٣٣هـ/١٣٣٤م أو ١٢٣٦م توفي يحيى بن إسحاق ابن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان[١].

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم، لأنهم رأو في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة، ولأنهم حرصوا

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢٣٦/٣ إلى ٢٤٠).

على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام الصحيح وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد عن أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحِّدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

ثانياً : جهاد الناصر لدين الله في الأندلس:

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام ١٢٠٩م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين، واعتزم بعد ذلك مَحْوَ وصمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحدين(١).

---

(١) انظر: معركة العقاب، شوقي أبوخليل ص٢٣.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت، واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وأن يدعوا نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس[1].

وشرع النصارى الحاقدين في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبي منهم جموعاً كبيرة.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب، وقسمها إلى خمسة جيوش:

١- الجيش الأول من قبائل البربر.

٢- والثاني من الجنود المغاربة.

٣- والثالث من الجند الموحّدية النظامية.

٤- والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

٥- والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبدالله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى إشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح[2].

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢٤٠/٣).

(٢) انظر: معركة العقاب، شوقي أبوخليل ص٢٣.

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداه بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سَلَبْطَرَّة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبدالله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد ابن جامع وكان الموحدون يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبدالله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس مالا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لانقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس(١).

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وإنه - أي البابا- يمنح كل من لبي الدعوة

---

(١) انظر: العقاب ص٢٦.

الغفران التام)[1].

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الإسبان وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الانفاق على حشودهم[2].

ووفدت على إسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ماهو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة- أولاً على أن يؤيد قضية إسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم- على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لايحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدرو الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت إمدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح

(١) انظر: العقاب ص٢٨.

(٢) المصدر السابق ص٢٩.

والملابس واللغات والعادات لقد اشتركت أوروبة فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء[1].

وفي روما، أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان.

وفي ٢٠ حزيران (يونية) ١٢١٢م، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لايصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعداده مابين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويبزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُرْدال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز،

---

(١) انظر: العقاب ص(٣٠،٣١).

والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة أخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير[1].

أ- حصار قلعة رباح:

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه، بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية.

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف أشباخ[2]: (وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة افتتاحها، وأن يُبْدأ بالسير تواً لمهاجمة المسلمين)[3].

---

(١) انظر: العقاب ص٣٢.

(٢)تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (١١٣/٢).

(٣) انظر: معركة العقاب ص٣١.

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف ابن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة، ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن[1].

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى اثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، وبيدرو الثاني ملك أراغون نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشاً لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها، واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر "ورادال" في جبال سيارا مورنيا "جبل الشارات" لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى[2].

ب- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجّاج:

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من

---

(١) انظر: معركة العقاب ص٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٥.

أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدس من وزيره أبي سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارا، فكان لهذا الفعل أثر سيىء في الجيش الإسلامي كله، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر(١).

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك، ونجد في الشريعة الغرّاء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

المعركة :

قام ملوك الإسبان في صباح ١٦ تموز "يولية" بترتيب جندهم لخوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرُّبى، تزعَّم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

١- تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها "ديجولويز".

---

(١) انظر: العقاب ص٣٦.

٢- وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاستبارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت "جونزالو نونيز دي لارا".

٣- والفرق الثالثة وتتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت "ردريك دياز كاميروس".

٤- وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران "ردريك الطليطلي"[(١)]، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضا إلى أربع فرق، ويتألف كله من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأحبار والأرغونيون.

أما جيش الموحدين، فقد قسّمه أبو عبدالله محمد الناصر تجاه جيش النصارى في سهل "تولوزا" وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق.

كانت الفرقة الإمامية تتألف من المتطوّعة، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين لأشباخ (١١٧/٢).

فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين. وضرب أبو عبدالله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته[1]، إيذانا باقتراب المعركة، ومن حوله حرسه من مشاة وفرسان. وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى الإسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت.

ولما تمَّت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبدالمؤمن وقد رفع المصحف الشريف باحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوّي بشدة في ساحة المعركة[2] وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفاً قوياً، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاستبارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وأن يمزقوها. واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدَّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حُشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الإمامية، وارتدوا فارِّين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم.

ولما رأى ملك قشتالة من الرُّبى تطور المعركة على هذا النحو السيىء،

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (١١٨/٢).

(٢) انظر: العقاب ص٤٢.

أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلِّف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: "إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد"(١).

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم.

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الامدادات الجديدة، ليلمُّوا شعثهم، وينظِّموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطِّمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حُطِّما، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتَّب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (١١٨/٢) نقلاً عن العقاب ص٤٥.

النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى إشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جداً، وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوربا كلها يدفعهم الحقد الصليبي للإنتقام من المسلمين، والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم[1].

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء :

١- أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النفْزي (٥٤٢-٦٠٩هـ). من أهل شاطبه، صاحب التآليف الذي "كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها. موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر .. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقيعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تَحَيّف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً وذلك يوم الاثنين

---

(١) انظر : العقاب ص٤٦،٤٧.

منتصف صفر سنة تسع وستمائة.. "[1].

٢- القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية "فقد في كائنة العقاب يوم الاثنين الرابع عشر لصفر سنة تسع وست مئة ...".

٣- أبو الصبر أيوب بن عبدالله الفِهْري. من أهل سبتة، الذي "استوسع في الرواية. وكان معروفاً بالزهد، واستشهد في كائنة العِقاب"[2].

٤- أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس "كان زاهداً، عابداً، معلما للقرآن، له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستة مئة، فأقام هنالك أياماً يَلْقى الزاهدين. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره.."[3].

٥- أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة " ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ.. .، واستشهد في وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩"[4].

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

---

(١) التكملة (١/١٠١-١٠٢) رقم ٢٦٢ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص٤٩٤.
(٢) المصدر السابق (١/٢٠٢)رقم ٥٣٦ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص٤٩٥.
(٣) المصدر السابق (١/٢٣٥) رقم ٦٢٣ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص٤٩٥.
(٤) التكملة (٢/٥٨٥-٥٨٦) رقم ١٥٥٩ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص٤٩٥.

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

١- الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: "صدق الرحمن وكذب الشيطان"(١).

٢- لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله، ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطره وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

٣- ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتماً في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

٤- سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار، وانسحب الأندلسيون من المعركة، وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة، وكان هذا الانفصال غير المتوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

٥- إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية

---

(١) انظر: العقاب ص٥٠.

وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوربا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

٦- الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم(١).

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيراً من مبانيها، بنيما كان الرهبان والقساوسة يرتِّلون الصلوات فرحاً بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة(٢).

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين(٣): "ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها

---

(١) انظر: العقاب ص٥١.

(٢) انظر: العقاب ص٥٢.

(٣) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (١٢٣/٢).

القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزّل، وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يـردوا هجمـات أعدائهـم حتـى يحـل فصـل الشتاء.

ونظّم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً عامـاً خسـروا فيـه كثـيراً مـن القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطـراف المدينـة بقيـت على ثباتها رغم جهود الإسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطُـرق وأكثرهـا إنسانية هي أن يقبل النصـارى مـا عرضـه المسـلمون، وكـان المسـلمون حينمـا سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قـد خشـوا العاقبـة، وأرسـلوا إلـى ملوك النصارى يعرضـون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهـب "مليـون دينار"، على أن يتركوا المدينة حرة يسـكنها المسلمون وفقـا لشـريعتهم وشـعائر دينهم، وهكذا قُبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقـات بهـذا المعنـى نظـراً لما لمسوه من صعاب فـ تاحها.

ولكـن الأحبـار الظـامئين إلـى دمـاء المسـلمين، أعلنـوا بطـلان هـذا الاتفـاق، وطلبوا أن تسلّم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلـك عـذراً هـو أن المسـلمين بعـد أن فتحـوا أبـواب المدينـة للنصارى، لم يؤدُّوا الضريبة المضروبة عليهم فـي الحـال، وسـرعان مـا أطلـق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقُتل من فـي أبـدة زهـاء ستين ألفا، وسُبي مثل هذا العدد، وهُدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحبار رضـاهم، ورتّلوا أناشـيد الشكر ضـارعين إلـى المولـى أن يشملهم برحمته "[1].

---

(١) انظر: العقاب ص٥٣.

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفاءه للعهود واحترامه للأديان.

قال الشاعر :

ملكنا فكان العدل منا سجيـــــة

فلما ملكتم سال بالـــــدم أبطـــــح

وحللتم قتل الأسارى وطالمـــــا

غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننـــــــا

وكل إناء بالذي فيه ينضــــــح[1]

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب ايضاً. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفح الطيب: (كانت العِقَاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فَبِخلاءِ كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدوّ لها ..)[2]. وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً إلى إشبيلية، وهنالك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين، وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزيناً كئيباً، ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات

---

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين لعبدالله علوان ص٨٤.

(٢) نفح الطيب (٤٢٠/١).

ولم يقم بشيء من شؤون الحكم سوى أن عيّن لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمداً لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب، ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموماً بأمر من وزرائه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في ١١ شعبان ٦١٠ هـ / ٢٥ كانون الأول "ديسمبر" سنة ١٢١٤ م، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر[١].

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدر وهكذا توضع أمور الدول في يد اشخاص يخونون الله وروسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمداً على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدين دماءً وأموالاً، وتفككاً داخلياً وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار

---

(١) انظر: العقاب ص٥٧.

والضعف عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبدالواد في تلمسان وبني حفص في تونس(١).

رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين :

١- ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم، ولذلك كفروهم واستحلوا دماءَهم واموالهم وسبوا نساءَهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحيانا واهية، أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير، ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه، ولأن دعوة المظلوم مستجابة لقوله صلى الله عليه وسلم : لمعاذ بن جبل حين بعثه الله إلى اليمن .. ".. . واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب".

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا وأن مآلهم إلى الخسران والهلاك، كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود(٢).

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢٤٨/٣ إلى ٢٥٣).
(٢) انظر: المُغرِب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عُبادة كُحيلة ص١١٩.

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالهما خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لهما بموجب سننه العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[1]. قال تعالى: ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (سورة الأعراف، الآية ٣٤). قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ولكل امة أجل﴾، أي: ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي: وقت معين مضروب لاستئصالهم[2]. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[3].

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد. وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (سورة هود، الآيات ١٠٠ - ١٠٢).

---

(١) انظر: السنن الإلهية، د.عبدالكريم زيدان ص١٢١.
(٢) انظر: تفسير الألوسي (١١٢/٨).
(٣) انظر: السنن الإلهية في الأمم ص١٢١.

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿كذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة﴾. فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد. فالآية تحذر من وخامة الظلم.

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس انفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[1]. قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ "سورة هود، الآية ١١٧"

قال الإمام الرازي في تفسيره : (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد)[2].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى:﴿بظلم﴾ أي: بشرك وكفر ﴿وأهلها مصلحون﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[3].

---

(١) انظر: السنن الإلهية في الأمم والأفراد ص١٢٢.
(٢) تفسير الرازي (٧٦/١٨).
(٣) تفسير القرطبي (١١٤/٩).

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق - أي في الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة"(١).

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها، ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال وسار خليفته عبدالمؤمن على منواله، وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

٢- من أسباب سقوط دولةالموحدين، ثورة ابن غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة، وأعلنت انتمائها وولائها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها، وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

---

(١) انظر: من رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح المنجد ص٤٠.

٣- ثورات الأعـراب المتتالية حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحيانا تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين وأحيانا تخضع لدولة الموحدين، ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين، لقد قدم الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدي عام ٥٨٤ هـ ومنذ وفاة المستنصرسنة ٦٢٠ هـ أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة، ويرهقونها بطلباتهم، ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين. ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر " ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم[1].

٤- ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين، ومن أشهر هذه الثورات، ثورة محمد بن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبالِ ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفود الموحدين في الأندلس، ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة، وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بلنسية الذي التجأ إلى ملك ليون .

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العِقاب[2].

---

(١) انظر: العقاب ص٦٨.

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي عزالدين عمر أحمد موسى ص٨٣.

٥- النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم :

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، وبل وبأعدائهم من النصارى، فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها. ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف[١].

أ - ولما تولى الخلافة عبدالواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبدالواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في ٦٢٣هـ/١٢٢٦م السيد أبو محمد عبدالله العباسي، وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى ابن الناصر، وظل كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون، وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤- ٦٣٣هـ/١٢٢٧-١٢٢٦م) وفي عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص٦٣.

بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن، وقلّت المجابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبدالمؤمن[١].

ب- دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه، فأبو محمد عبدالله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها، وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

ج- إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفيذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبدالمؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخة أوباحثين عن ملذاتهم[٢].

إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية ام قبلية أم عسكرية[٣].

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص٨٤.
(٢) انظر : المصدر السابق ص٨٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٨٦.

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور، فرفعوا للخلافة من شاؤوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[١].

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من ايديهم ولهذا استبدوا. ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ[٢].

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبدالمؤمن، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائيا عن مراكش. لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه، ومتابعة الخلافاء وإشرافهم بانفسهم وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة[٣].

٦- الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي :

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص٨٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٩.

(٣) انظر:المصدر السابق ص٩١،٩٢.

لا شك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي، ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون، وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدوا جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات، بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، تبدل من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم .

لقد قضى ادخال العربان في الجيش الموحدي على كافة أهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال، ولا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأوامر وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقا رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور

بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة[١].

٧- الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشؤون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جل أم صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضة، وتوفى من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالا للدعة والمسالمة، ومولعا بالسماع ليلاً ونهاراً[٢] وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهون عنها لان انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط، ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها، قال تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾(سورة هود، الآية: ١١٦). وقوله تعالى: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بماهو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص٩٥،٩٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٦.

الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[1].

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدو عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾.

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ سورة الإسراء، الآية ١٦.

وجاء في تفسيرها : وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجبَّاريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع بأتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[2].

٨- تقلص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها

---

(١) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص١٨٦.

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٤٢/١٥).

إفريقية، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبوعبدالله محمد بن هود في رجب ٦٢٥هـ/١٢٢٨م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين، وسيطر ابن هود على معظم الأندلس، وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم)[(١)].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م زيان بن مردنيش وفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس[(٢)].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين، وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين، واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ماعدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م وبلنسية في عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، ومرسية ٦٤٤هـ/١٢٤٦م وإشبيلية ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت إفريقية سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين

---

(١) انظر: البيان المغرب (٢٦٩/٣) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص١٠٨.

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص١٠٨.

بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبدالواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات(١).

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس، وإفريقية، وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل(٢)، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبدالواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

٩- فتور مبادىء ابن تومرت في نفوس الموحدين بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد، ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في اجهزة حزب الموحدين، والذي توصلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: "ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء"(٣). ولم

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص١٠٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ص١١١.

(٣) المعجب ص١٩١.

يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبدالمؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التي قامت عليها ويلتزمها وتبعد من يحيد عنها. ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبدالمؤمن قبيلة كومية متقويا بهم وولاهم المناصب في الدولة، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس، وذبل الإيمان في القلوب، فدب النزاع على المصالح الخاصة ـا يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة، فالمنصور يصرح بذلك لخاصته، والمأمون يمحوا آثارها ويزيل رسومها، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبدالمؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسد ذلك عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولاريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم(١).

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص١١٧.

كما لا يخفى أن انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، جعل الناس ينسلون من المنظومة الموحدية والعقدية ويحاولون البحث عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام، هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين .

خامساً: خلفاء الموحدين :

عبدالمؤمن بن علي	٥٢٤-٥٥٨هـ / ١١٢٠-١١٦٣م
أبو يعقوب يوسف	٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٣٦-١١٨٤م
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م
أبو محمد عبدالله الناصر	٥٩٥-٦١٠هـ/ ١١٩٩- ١٢١٣م
أبو يعقوب يوسف المستنصر	٦١١-٦٢٠هـ / ١٣١٣-١٢٢٤م
عبدالواحد بن يوسف بن عبدالمؤمن	٦٢٠-٦٢١هـ / - ١٢٢٤م
أبوعبدالله بن يعقوب المنصور(العادل)	٦٢١-٦٢٤هـ /١٢٢٤-١٢٢٧م
يحي بن الناصر	٦٢٤-٦٢٧هـ /١٢٢٧-١٢٣٠م
المأمون بن المنصور	٦٢٧-٦٣٠هـ / ١٢٣١-١٢٣٢م
الرشيد بن المأمون بن المنصور	٦٣٠-٦٤٠هـ / ١٢٣٢-١٢٤٢م
السعيد علي أبو الحسن	٦٤٠-٦٤٦هـ / ١٢٤٢-١٢٤٨م
أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦-٦٦٥هـ / ١٢٤٨-١٢٦٦م
أبو دبوس الواثق بالله	٦٦٥-٦٦٨هـ / ١٢٦٦-١٢٧٠م

الفصل الثالث

الأندلس والشمال الإفريقي

بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٧هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط المو[illegible]ن وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الإفريقي بعد سقوط الموحدين، فانقسم إلى دول، لاتجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولاتجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة، وخرج من ذلك المخاض الطويل، دول من أهمها ؛ دولة بني حفص في إفريقية، دولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني

مرين (ثم بني وطاس في المغرب الأقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الإفريقي مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى، وملك محمد ابن يوسف بن هود قواعد شرقي الأندلس، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣هـ/٢٩ حزيران (يونية) ١٢٣٦م، صيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف، ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض، ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ثم شاطبة ودانية وفي عام ٦٤٦هـ سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يُخير المسلون بين البقاء في إشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال حُول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع

أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط إشبيلية ايذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير، فاستولى النصارى تباعاً على : شريش، شذونة، قادس، شلوقه، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها.... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة[1].

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّنْدي تلك الاوضاع التي وصل إليها حال الأندلس، ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية ومرسيه بيد النصارى. لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً، فلله دره فلكم اغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان

---

(١) انظر: سقوط غرناطة ص٣٠.

هي الأمور كما شاهدتهـا دولٌ
من سرّه زمن ساءته ازمـــــان
وهذه الدار لا تبقي على أحــدٍ
ولا يدوم على حال لها شَـــان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين منهم أكليل وتيجــــــان
أتى على الكل أمرُ لا مردّ لــه
حتى قضوا فكأن القوم ماكانــوا
فجائع الدهر أنواع منوعـــــة
وللزمان مسرات وأحـــــزان
وللحوادث سلوانٌ يسهلهـــــا
ومالما حل بالإسلام سلـــوان
وهي الجزيرة أمرٌ لا عزاء لــه
هوى له أحُدُ وانهد ثهــــلان[1]
أصابها العين في الإسلام فامتعنت
حتى خلت منه أقطار وبلـــدانُ
فاسأل بَلنسية ما شأن مُرسيـــة
وأين شاطبة أم أين جَيـــانُ
وأين قرطبة دار العلوم فكـــم
من عالم قد سما فيها له شـأنُ

(١) أحد وثهلان : جبلان.

وأينَ حِمصٌ وما تَحويـه مـن نُزَهٍ
ونهرها العذبُ فياض ومــلآنُ
قواعدٌ كُنَّ أركان البلاد فمـــــــا
عسى البقاء إذا لم تبق أركـــان
تبكي الحنفية البيضاء من أســـف
كما بكى لفِراق الإلفِ هَيمـــانُ
على ديار من الإسلام خاليــــــــةٍ
قد أقفرت ولها بالكفر عُمــرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيس وصُلبــــــانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهــي جامدةٌ
حتى المنابرُ ترْثي وهي عيدانُ
ياغفلاً وله في الدهر موعظـــــــة
إن كنت في سنة فالدهر يقظـان
وماشياً مرحاً يُلهيه مَوْطِنــــــــه
أبعد حمص تغرُّ المرءَ أوطـــان
تلك المصيبة أنستْ ما تقدمهـــــا
ومالها مع طول الدهر نسيـــان
يا أيها البيضـــــاء رايتُـــــــه
أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
ياراكبين عتاق الخـــيل ضامرةً
كأنها في مجالِ السّبق عُقبـــانُ

وحاملينَ سيوف الهنـــــدِ مرْهفةً
كأنهـــــا في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر فـــــي دَعةٍ
لهـــــم بأوطانهم عز وسطان
أعندكم نبأٌ من أهل أندلـــــــس
فقد ســرى بحديث القوم رُكبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى واســرى فما يهتزٌ إنسانُ
ماذا التقاطع في الإسلام بينكـــم
وأنتم ياعبـــــاد الله إخوان
ألا نفوس أبياتٌ لها هِمَـــــمٌ
أما على الخير أنصار وأعوان
يامن لِذَّلةِ قومٍ بعد عزهـــــم
أحال حالهم كفـــــر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهـــم
عليهم من ثياب الـــذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهـــمُ
لهالك الأمر واستهوتك احزان
يارُبَّ أُم وطفل حيل بينهـــم
كما تفرقت ارواح وأبـــدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

كأنما هي ياقـــــوت ومرجان

يقودُها العِلْج للمكروه مُكرهـــــة

والعين باكيـــة والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب مـــن كمدٍ

إن كان في القلب إسلام وإيمان(١)

"وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية –قد أيقنوا بانهيار سطان الإسلام في الأندلس– يهرعون إلى احتذاء مثاله، والى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة"(٢).

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ماتبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى(٣).

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، فردّهم

---

(١) نفح الطيب (٤/٤٨٦،٤٨٧،٤٨٨).

(٢) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ص٣٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٣٤.

بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام ٦٦٢هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى.

شدّد النصارى هجماتهم بدءاً من عام ٦٦٣هـ وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف ابن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧ وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرب(١).

وفي عام ٦٦٨هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ماحدث، وذلك في ٢٩ جمادي الثانية ٦٧١هـ (كانون الأول "ديسمبر" ١٢٧٢م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطّد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى(٢).

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٣٣.

(٢) ابن خلدون (١٩٠/٧) نقلاً عن سقوط غرناطة ص٣٣.

أولاً: ترجمة ابن الأحمر :

هو أبو عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين ابن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عُبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً[١].

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرْجُونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة ٥٩١هـ، (١١٩٥م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥هـ[٢].

أ- شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شؤون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم، فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل و الملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس[٣]. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: "كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف بعيداً من

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص٥١٧.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحات ص٣١.

التصنع، شديد الحزم، فظاً في طلب حقه، مباشـراً للحـرب بنفسـه يلبـس الخشـن ويؤثر التبدي"[١].

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقـة القصـر يتـأمل ويفكـر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى محالفـة اعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر، إلى جانب بنائـه القصـر المشـهور، أنـه أنشـأ مـأوى للعميـان ودار للعجـزة، وبنـى مستشـفى كبيراً ونشـر المـدارس، وأعـد المنـازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متستراً بعيداً عـن مظاهر الأبهة وعظمة الملك[٢] "وكان يعقد للناس مجلسـاً عامـاً يومين فـي كـل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات، وينشده الشـعراء وتدخـل إليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولوا الرتـب النبيهة"[٣]. كما اهتـم بالحيـاة الاقتصاديـة فأقـام المخـازن للحبـوب وسـائر المـواد الغذائيـة، وكـانت تـوزع بأسـعار عادلـة "فتوفـر مالـه، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الاهـراء، ومـلأ بطـن الجبـل المتصـل بمعقلـه حبوباً مختلفة"[٤]. ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التـي أوصلهـا كذلـك إلى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامـات العامـة، ومـدّ إلـى سهول غرناطة قنوات الري التي مايزال بعضها قائماً حتى اليوم[٥].

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص٤٣.

(٢) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحات ص٣٢.

(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص٤٤.

(٤) المصدر السابق ص٤٣.

(٥) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري ص٣٢.

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

١- موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة أبعد مكاناً بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

٢- ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ماتملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

٣- هجرة المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجؤون إليه، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبيه وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها(١).

٤- حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص٥٢١،٥٢٢.

للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

٥- براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر[١].

وغير ذلك من الأسباب .

ثانياً: جهاد المرينيين في الأندلس:

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبدالله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمّة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى إنه دعي باسم "محمد الفقيه"، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرة المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب (أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة ٦٧٣هـ فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان[٢] الغزواتية حتى يركبها المسلمون

---

(١) انظر: المُغرِب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة ص٢٦٩.
(٢) أي ببناء السفن.

المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين، وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهّه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في ١٧ ذي الحجة ٦٧٣هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح مامرّ عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر، وجمع في طريقه غنائم ضخمة وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصورة - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة، لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبدالواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألّف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من

المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز ٦٧٤هـ، وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق، والعُدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوّعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى
غزو العداة وتجويز صباحَ مَسا
كأنما البحر أضحى للجياد مَدىً
وكل عُشبْة ماء حُوّلت فَرَسا
كأنما اقترب البرّان واتصلا
فصار ذاك طريقاً للورى يَبِسا[1]

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخُدّام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس ٢١ صفر ٦٧٤هـ وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني اشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين اشقيلولة منافسة ومخاصمة

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٤٣.

وشحناء، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلّف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدِّمته، وقدَّمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والدَهُ بمرحلة، وسار أبو يوسف في أثر ابنه في جميع جيوشه، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة مابين قرطبة وإشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجه.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة "دونونة" في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم(١).

أ- مجلس الشورى الحربي :

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ قبائل مرين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع، وأخذ أجودها، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٤٥.

إلى معية الله وماعنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله وبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بُعْدٍ والرجال أمام الخيل ودونونه في وسط الجيش وكان ملك قشتالة حزمه بيده، وزوجه ابنته، وفوّضه على جيوشه وحروبه، وفوّض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به لأنه كان لم ينهزم قط، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولايمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبرياءه وغروره تحت ظلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا[1] الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

ب- ترتيب أبي يوسف لجيشه :

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجَّل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمِّنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر للصحابة "اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوِّها" فأجاب الله تعالى دعاءَه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٤٦.

يوسف على مقدمته، ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذابُّون عن حماه والمقاتلون عِداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدّوا في طِلابها، وأبذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، "وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، " اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" "فلما سمعوا منه هذه المقالة، تاقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم"(١).

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسّم "دونونة" جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرابهم، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان "دونونة" كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسَّرت أعلامه(٢).

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص٥٣٨ نقلاً عن الذخيرة السنية ص١٤٩-١٥٠.

(٢) انظر: سقوط غرناطة ص٤٨.

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزّلاّقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرَك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم، وعاد إلى الجزيرة الخضراء وعبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم[١].

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستاجة وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

١- الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ولذلك عقد لواءً لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على أثره.

٢- إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لاينشغل بها المجاهدون وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم، وبذلك تحاشى الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في معركة بلاط الشهداء وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخراج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

٣- صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص٥٣٨.

معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسبين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهرت في الحروب وخططها.

٤- باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عدداً من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدي، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

٥- أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكّسة إلى أعلى منار "القرويين" ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم(١).

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن اشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

هَبَّت بنصركمُ الرياحُ الأربع
وسَرَت بسعـــدكمُ النجوم الطُّلَّعُ
وأتت لنصركم الملائكُ سُبَّقاً
حتى أضاق بها الفضاء الأوسعُ
واستبشر الفَلَكُ الأثـــيرُ تيقُّناً
أن الأمـــور إلى مرادك تَرْجع(٢)

---

(١) انظر: سقوط غرناطة ص٥٠.

(٢) انظر: ان الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى .

وأمدك الرحمن بالفتح الـــذي
ملأ البسيطة نوره المتشعشـــع
لِمَ لا؟ وأنْتَ بذلت في مرضـاته
نفساً تُفدّيها الخلائق أجــــمعُ
وأتيت تنصر دينـــه متــوكلاً
بعزيمة كالسَّيف بــل هي أقطع
أين المفر ولا فرار لهـــارب
والأرض تُنْشَرُ فـي يديك وتُجْمَعُ
فلقد كسوتَ الدين عــزاً شامخاً
ولبســـت منه أنت مالا يُخْلَعُ
إن قيل مَنْ خيرُ الملوك بأسرها
فإليـــك يا يعقوب تومي الأصبَعُ(١)

ج- الغزوة الثانية:

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم، ودخل معهم في أحلاف ضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة، وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال "طريف" مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٥١.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودّهم من جديد[(١)]، فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة ٧٠١هـ/ أيار مايو ١٣٠٢ بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة[(٢)].

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفرسنة ٦٨٤هـ إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفاوض السلطان المريني على مايراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس[(٣)].

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٥٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: التاريخ الأندلسي ص٥٤٠.

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس. هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته :

كان رحمه الله صواماً قواماً، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرا، وفي أكثر ليله قائماً يصلي، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته مكرماً للصالحين، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين، متواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفاً في سفك الدماء، كريماً جواداً، وكان مظفّرا منصور الراية، ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدواً إلا قهره، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمّره، ولا قصد بلداً إلا فتحه[١].

ولا ننسى أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده، شجاعاً مقداماً يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله.

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي[٢].

قال عنه ابن كثير في وفيات عام ٦٨٥ هـ : (أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة واستمرت ايامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها)[٣].

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٥٥.
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.
(٣) البداية والنهاية (٣٢٧/١٣).

د – مشيخة الغُزاة:

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة، ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين، وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبدالله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣هـ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء[١].

عن هذه المشيخة يذكر المقري في نفح الطيب أنه "لم يزل ملوك بني مرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غُزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمّونه شيخ الغُزاة"[٢].

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١م) فخلفه ولده أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة ٧٠٨ هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبويع

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص٥٤٠.

(٢) نفح الطيب (٣٨٥/٤) نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص٥٤٠.

يوم الجمعة غرة شوال عام ٧٠٨ هـ.

وكان مجبولاً على طلب الهدنة محباً للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المريّة، فهزم النصارى في المريّة، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصارٍ طويل مضنٍ دام حتى آخر سنة ٧٠٩ هـ.

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاءٌ وعداءٌ بينه وبين بني مرين حكّام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة ٧١٣هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف راس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها[١].

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، لكنهم نكلوا عن معاونتهم، بسبب سوء تصرفات سابقيه ضدهم[٢].

---

(١) انظر: الأعلام للزركلي (٢٨/٨).

(٢) انظر: نهاية الأندلس ص١١٧.

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة ٧١٦هـ واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون[١].

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة ألّب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرةً، وكان وصيا على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي "البابا" في طليطلة[٢] وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي[٣].

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف، منهم ألف وخمس مئة فارس والباقي رجّالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء[٤]، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة، لجؤوا إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم، فقضى الله تعالى بهزيمة أمم النصرانية التي احتقرت جيش غرناطة حينما رأت التفاوت الكبير بين الجيشين، وكان نصرا عزيزاً، ويوماً مشهوداً. زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه[٥].

---

(١) انظر: ابن جزي ومنهاجه في التفسير لعلي الزبيري (٥٦/١).

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) التاريخ الأندلسي ص٥٤١-٥٤٢.

(٤) المصدر السابق ص٥٤٢.

(٥) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (٥٧/١).

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به:

(كان حسن الخُلُق، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتا في المواقف، عفيف الأزرار، ناشئا في حجرة الطهارة بعيدا عن الصبوة، بريا من المعاقرة)(١).

وفي سنة ٧٢٤ هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه(٢).

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة وكانت من أعظم غزواته وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر(٣).

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قِبل ابن عم له تربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحا وتُوفي على إثر ذلك في اليوم التالي رحمه الله وتقبل شهادته(٤).

وفي عام ٧٣٣ هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح - أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام ٧٠٩ هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق الذي كان ذا أهمية

---

(١) الإحاطة (٣٧٧/١) بريًا من المعاقرة أي بعيداً عن شرب الخمر.

(٢) انظر: نهاية الأندلس ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق ص١٢١.

بالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية[1].

هـ - موقعة طريف:

وقد تجلى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة ٧٤١هـ من قبل النصارى.

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة ٧٣٣هـ بمساعدة بني مرين - حكام المغرب -جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً- إذ سقط في أيدي النصارى سنة ٧٠٩هـ توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلىالاستنجاد بإخوتهم في الدين في العدوة المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس "وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته ٧٣٣-٧٥٥هـ) " .

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا

(١) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٥٩).

أسطولاً بحرياً متحداً ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوّهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف، وطعنا بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة[1]. ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم

(١) انظر: ابن خلدون (٧/٢٦١) نقلاً عن ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٧٢).

من أول المحرم سنة ٧٤١هـ وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم[١] وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي:

(ولما قرب معسكرهم سرّب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته، وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولمّا نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحسّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم[٢].

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب[٣] يقول المقري في وصف هذه الفاجعة:

---

(١) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (٧٣/١).
(٢) انظر: العبر لابن خلدون (٢٦١/٧-٢٦٢) نقلاً عن ابن جزي (٧٤/١).
(٣) انظر: نهاية الأندلس ص١٢٨.

"فقضى الله الذي لامرد لما قدّره أن صارت تلك الجموع مكّسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً، وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمّة وافرة من الأعلام.. واشرأبّ العدو والكافر لأخذ مابقي من الجزيرة ذات الظل الوريف، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء، التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء"[1].

ويرى الأستاذ نجيب زبيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى: (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب. وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية، حتى إنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ماحث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للايقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة..)[2].

ولاشك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذا لم يكن لها عمل مضاد ضد مخططات الأعداء بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بناءها.

---

(١) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (٧٤/١) نقلاً عن نفخ الطيب (٣١٧/٦).
(٢) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، الأستاذ نجيب زبيب (٨١/٣).

و- العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف:

١- أبو محمد عبدالله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

٢- القاضي أبو عبدالله محمد بن بكر الأشعري المالقي، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التّمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، (كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء، مجلاً لأهله، مُطَّرح التصنع، عديم المبالاة بالملبس، بادي الظاهر، عزيز النفس، نافذ الحكم، صَوّالة معروفاً بنصرة من أرزَ إليه. تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظراً في أمور العَقد والحل ومصالح الكافة ثم وُليّ القضاء بها، فأعَزَّ الخُطة، وترك الهَوادة، ملازماً للقراءة، والإقراء محافظاً للأوقات، حريصاً على الإفادة. ثم وُلّيَ القضاء والخطابة بغرناطة"[١].

"وتصدَّر لبثِّ العلم بالحضارة يقرىء فنوناً منه جَمَّة فنفع وخَرَّج ودرَّس العربية والفقه والأصول، وأقرأ القرآن، وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمُّل وخفض الجناح.."[٢].

"واستمر على عمله من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد - رحمه الله - في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف، شهيداً محرّضاً يشحذ البصائر و (يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول :"حسبنا الله ونعم الوكيل".

---

(١) الإحاطة (٢/١٧٦-١٧٧).

(٢) نفس المصدر (٢/١٧٧).

٣- أبو القاسم محمد بن جُزَيّ وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات. كان "فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جمّاعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته"(١).

"فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف.."(٢).

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذي كان همهم نصرة دين الله والموت في سبيل الله تعالى.

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مدّ وجز، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، أو أراجون حيناً آخر ثم مالبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة، وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في الملذات، وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى، وكان زمن سقوط دولة بني مرين ٨٦٩هـ(٣).

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث إن ملك

---

(١) نفح الطيب (٥/٥١٤).

(٢) نفس المصدر (٥/٥١٤) نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص٥٤٧.

(٣) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٧٤).

غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى "ثريا" وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتيه الحسناء، وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى وليّاً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبدالله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجَّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدَّد الحجر عليهم، وعُوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنّت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة ٨٨٧هـ /١٤٨٢م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وازبيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي، وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك، ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردّا معاً الإسبان في جمادي الأولى ٨٨٧هـ/ تموز "يوليه" ١٤٨٢م.

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيَّره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبدالله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ، وعمره ٢٥ سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه، وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة ٨٨٨هـ نيسان "ابريل" سنة ١٤٨٣ إلا أنه وقع أسيراً في يد النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبدالله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبدالله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة أبوعبدالله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى، إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدام أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة، وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبدالله الصغير، بعد أن و قعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبدالله الصغير، وأخذ يبث أبو عبدالله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادي الأولى ٨٩١هـ / أيار مايو ١٤٨٦م، وكان موقف أبي عبدالله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو مازال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى. وبقي يستظل

بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له.

وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبدالله الصغير ضد عمه، وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرّة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبدالله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جماد الثانية ٨٩٢هـ/حزيران يونيه ١٤٨٧م، وخاف الزغل أن يسير إلى انجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبدالله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان ٨٩٢هـ/ آب اغسطس ١٤٧٨م ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لاتستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزا أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغيِّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل

استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغيِّر خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: "أنهما – فرديناند وزوجه ايزبيلا – لايفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لايستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما مايلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية"(١).

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً، لأن الإسلام لايجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام ٨٩٥هـ/١٤٩٠م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية واهمها:

١- أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

٢- تخفف عنهم أعباء الضرائب.

٣- ألا يولى عليهم يهودي.

٤- ألا يدخل نصراني في "الجماعة الإسلامية"

٥- وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا إن النصارى لايلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي(٢).

---

(١) نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ص٣٦٩.

(٢) انظر: مصرع غرناطة ص(٧٢،٧٣،٧٤،٧٥،٧٦،٧٧).

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبدالله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبيه هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبدالله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى(١).

في سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه ايزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبدالله الصغير، فثارت نفس أبي عبدالله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه، فرفض الانقياد والخضوع، وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠-٨٠ ألفاً، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جماد الثانية سنة ٨٩٦هـ/سنة ١٤٩١م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لاتمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسّان والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٧٧.

والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين"(١).

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضـون، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء، وقلت المؤن، والذخائر ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة "أبو القاسم عبدالملك" مجلس أبي عبدالله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لاتكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامة، والدفاع عبث لايجدي.

ولكن موسى بن أبي غسَّان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان "لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن"(٢).

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: "لم تنضب كل مواردنا بعد.. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها.."(٣).

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناساً انهزموا في داخلهم وخارت

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٨١.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٨٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ص٨٢،٨٣.

عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبدالملك[1] جاء في نفح الطيب: "وفي ثاني ربيع الأول من السنة – أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة – استولى النصارى على الحمراء، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت، ولايحكم على أحد منهم إلا شريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ولايغصبوا أحداً، وأن لايولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وأن يفتك جميع مَنْ أُسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكه ولاسواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعُدْوة لا يُمنَع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لايلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لايقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصَّر من المسلمين يُوقف أياماً حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولايعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ماسلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولايطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولايدخل مسجداً من

---

(١) انظر: سقوط غرناطة ص٨٣.

مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولايجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن[1].

ولايمنع مؤذن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولاغيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقري بعد هذا: "وأمثال هذا مما تركنا ذكره" من الشروط[2].

يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان: (وهذا أفضل مايمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما لمس فرديناند وايزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني "نوفمبر" مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاؤوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نُقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور"[3] وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسَّان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: "اتركوا

---

(١) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان.

(٢) نفح الطيب (٢٧٨/٢٧٧/٦) نقلاً عن سقوط غرناطة ص٨٣.

(٣) نقلاً عن مصرع غرناطة ص٨٥.

العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخلَقْ لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمُّنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولأن لم يَظْفَر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها)[١].

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس ماثل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبدالله الصغير: "الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي"[٢]، وصاح من حوله على : "الله أكبر ولا راد لقضاء الله" وقرّروا جميعا التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: "لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق، وهذا ماسوف نعاني من مصائب الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه"[٣]، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى .

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٨٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنا لـن أقرّ وثيقةً
فرضت وأخضع للعِدا
ما كان عذري إن جبنت
وخفت أسباب الردى
والموت حقّ في الرقاب
أطال أم قصر المدى
إني رسمت نهايتي
بيدي ولن أترددا
كنت الحسام لأمتي
واليوم للوطن الفدى
أنا لن أعيش العمر
عبداً بل سأقضي سيدا[(١)]

ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ، كانون الثاني (يناير) سنة ١٤٩٢م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبدالله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع

(١) سقوط الأندلس، د. ناصر العُمر ص٦٥.

"هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين"[1].

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبدالله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلىداخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليبا كبيراً فضيا وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكا للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه، وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء[2] وتحرك الركب نحو منطقة البشرات، وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبدالله الصغير مودعا لمدينته وملكه، فاجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: "إبك مثل النساء مُلكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال"

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحِكَم.

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ص(٣/١٢٤).

(٢) نفس المصدر السابق (٣/١٢٥).

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة : ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسىً وخشوعاً وتهيباً من عظمتها لانها أصبحت كلمة تاريخية. لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة"[1].

ولقد صوّر أحد الشعراء على لسانها قولها :

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع

مجداً ثوى وعاراً أقاما

هدّني فوق خطبنا انـــك ابني

يا لأمٍّ تسقي العذاب تؤاما

لم تصن كالرجال ملكا فأمسى

ركنه اندك فابكه كالأيامى[2]

يقول المؤرخ عنان: "وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطةمكانة بارزة، وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الاعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجى قدر ما تثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية"[3].

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراسا لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وما قصة عائشة الحرة مع ابنها إلا واحدة منها[4].

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبدالله الصغير إلى الغرب مع

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/١٢٦،١٢٧).

(٢) انظر : سقوط الأندلس ص٧٠.

(٣) نهاية الأندلس بتصرف ص١٩٧ نقلاً عن سقوط الأندلس ص٦٩.

(٤) انظر : سقوط الأندلس ص٧٠.

أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس[1]، مستجيراً بالسلطان أبي عبدالله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه، ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبدالله محمد بن عبدالله العربي العُقيلي، وقدمه على لسان أبي عبدالله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم
رعيًاً لما مثلـه يُرْعى من الذِّممِ
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن
جار الزمان عليه جَوْرَ منتقمِ
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباَ
وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم
حكمٌ من الله حتى لامردَّ لـه
وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولْتها
تصول حتى على الآساد في الأجَمِ
كنا ملوكا لنا في أرضنا دول
نمنا بها تحت أفنان من النعمِ
فايقظتنا سهامٌ للردى صبب
يرمي بأفجع حتف من بهنَّ رُمي

(١) نفح الطيب (٢٧٨/٦) نقلاً عن سقوط غرناطة ص٩٦.

فلا تنم تحت ظل الملك نومتنـــا
وأي ملك بظلّ الملك لم ينـــــــمِ
يبكي عليه الذي قد كان يعرضـه
بأدمع مزجت أمواههــــــــا بدَمِ[1]

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئا فشيئا في نفوس المسلمين، واسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسـلمين المتنصرين "أو الموريسكين" لـم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطـة مرحلـة مؤلمـة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطـق بالعربيـة فـي الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقـي منهـم، وزاد الكردينال "كمينسس" على ذلك، فأمر بجمـع كل مـا يستطاع جمعـه مـن الكتـب العربية ونظمت أكداسا في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمـن، بـل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها[2]، لقـد ظـن رئيس الأسـاقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في إسبانيا وأنـى هـذا لـه، وقـد تركـت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها علـى مـر الدهـور وكر العصور، وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بـإذن اللـه فـي ديارنـا التـي سلبت من أيدينا، وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة، وإنها لتمر فـي مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، "ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا".

---

(١) انظر: نفح الطيب (٦/٦١٨ إلى ٢٨٨).

(٢) انظر: سقوط غرناطة ص٩٨.

رابعاً: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي اسبغت على سياسة إسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) ١٥٠١ أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته "إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال".

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، تمزيق الأرجل وفسخ الفك .. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه(١).

(١) انظر: محاكم التفتيش ص٩١ نقلاً عن سقوط غرناطة ص١٠٠.

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق[1].

ومما يذكر.. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنيَّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً[2].

"لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم،

---

(١) انظر: سقوط غرناطة ص١٠٠

(٢) انظر: محاكم التفتيش ص٩٣ نقلاً عن سقوط غرناطة ص١٠٩.

ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيالها من فجيعة ما أمّرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها"[١].

"وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً"[٢].

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب. كانت تلك المحاكم والدواويين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته[٣].

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالإحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب "الأوتودافي" وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة

---

(١) انظر: نهاية الأندلس ص٣٢١ نقلاً عن سقوط الأندلس ص٧٢.

(٢) انظر: سقوط الأندلس ص٧٢.

(٣) انظر: سقوط الأندلس ص١٠.

بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة[1].

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة، وسلطان مطلق، تنحني أمامه أية سلطة، وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف، وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ماوجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لايتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولايستطيع دفعاً لها، ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن باخلاصهم لدينهم الجديد، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك مايقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد، فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف، وفي يوم الجمعة

---

(١) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى لمحمد عبدالله عنان ص٣٢/٢٤ نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٢٢٢/٣).

يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمّدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية، وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية، ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية(١). وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير، وتعلقهم بدينهم القديم، وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم(٢).

خامساً: فتاوى هامة :

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يعاون أتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة وكان تاريخ هذه الرسالة سنة ٩١٠هـ/٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م.

وهذا نص الفتاوى:

"الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما"

اخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن

---

(١) أي الأحكام الإسلامية.

(٢) انظر:الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٢٢٣).

شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كتابه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيدالله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لايضر ولاينفع، وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لاينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمَّم به، فأقصدوا بالإيماء، نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة

وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلـة تسـقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لابنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهـل الكتاب وإن أكرهوكم على إنكـاح بنـاتكم منهم فـاعتقدوا تحريمـه لـولا الإكـراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيَّرتموه. وكـذا إن أكرهوكـم علـى ربـا أو حـرام فـافعلوا منكريـن بقلوبكـم ثـم ليـس عليكـم إلاّ رووس أموالكـم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فـإن أمكنكم التوبـة والإلغـاز فـافعلوا، وإلا فكونـوا مطمئنيـن القلـوب بالإيمـان إن نطقتـم بهـا ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَداً، ناوين أنه الشيطان أو مُمَد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قـالوا عيسـى توفـى بـالصلب فانووا من التوفيـة والكمـال والتشـريف مـن هـذه وإماتتـه وصلبـه وأنشـأد ذكـره إظهار الثناء عليه بين الناس، وإنه استوفاه الله برفعه إلى العلو، ومايعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به. وأنا أسأل اللـه أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنـة ولا وجلـة بل بصدمة الترك الكرام

ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره "يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى"(١).

---

(١) هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبدالله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفتيكان برومه. انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١/٢٢٥).

سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ماورد في تلك الوثيقة الغريبة[1].

"يعتبر الموريسكي[2] أو العربي المتنصِّر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صفات العذراء أو اسمها لاتناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في أتباعه هذه العادة، أو يقول انه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بإيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولايأكل ولايشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية.

---

(١) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٢٢٦).

(٢) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية.

أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهنّ، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول إن الكعبة أول معابد الله أو يقول إنه لم يُنَصَّر إيماناً بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين.."[١].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفيش قروناً عدة وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان "الجزويت" أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال "سولت" الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل "ليمونكي" مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل "ليموتكي" فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (٣/٢٢٦،٢٢٧).

أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته مايلي(١).

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش "الدينونة" كما يسمونه، وهو عبارة عن "دكة" عالية يجلس عليها رئيس الديوان(٢)، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها مايستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ماحييت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية مازالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السجناء الإحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق

---

(١) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة.

(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش.

من الحياة، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة مالاقى من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها نفيفا من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهولـه الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدؤن بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المُعَذَّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت[١].

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تأبوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذَّب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التأبوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزّق الشاب وتقطّع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعَذَّبين

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص١١٢.

وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنّ جنونهم وانطلقوا - كمن به مسّ - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدُقت عظامه دقاً وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره، وزفّوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب. فمزّقته السكاكين شر ممزّق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك[١].

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

١- تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

٢- سعى ممالك إسبانيا نحو الإتحاد وتمّ ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندوا) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس[٢].

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٩٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

٣- الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات)[١].

أما شوقي أبو خليل فيقول: "والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهتك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لايستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لايستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة)[٢].

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٩٤.

(٢)انظر: المصدر السابق نفسه.

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم[١]. دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور "الله أكبر" وبقينا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبدالرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه"[٢].

يقول الدكتور عبدالرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: (كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم"[٣].

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين

دَوْزِنِ العودَ وهاتِ القَدَحا

راقتِ الخمرةُ والوَرْدُ صَحَا[٤]

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

---

(١) انظر: سقوط الأندلس ص٢٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٧.

(٣) انظر: التاريخ الأندلسي ص٢١١.

(٤) انظر: النصر والهزيمة لشوقي أبوخليل ص١٢٣.

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم

حلل الحــرير عليكم ألواناً

ماكان أقبحهم وأحسنكم بهــا

لو لم يكــن ببطرنة ماكانا(١)

٤- الاختلاف والتفـرق بيـن المسلمين، ولـو نظـرت إلـى تـاريخ العلاقـات بيـن مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبدالواد والدولـة الحفصيـة لوجـدت أمراً فظيعاً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بيـن المسلمين، بـل أكـثر مـن ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجـل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائـف بـل إن التفـرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حـال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبــددٌ

فيها وشمل الضد غير مبــدد

ماذا اعتذاركم غداً لنبيكـــم

وطريق هذا الغدر غير ممهد

إن قال لم فرطتم في دينكــم

وتركتموه للعدو المعتــــدي

تالله لو أن العقوبة لم تخـف

لكفى الحيا من وجه ذاك السيد(٢)

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشـعوب لاتتبـدل ولاتتغـير ولاتجـامل،

---

(١) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين، لعلي محمد محمد الصلابي ص٩٠.

(٢) انظر: سقوط الأندلس ص٣٣.

وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية "فأهلكوا"[١].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: "فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف"[٢].

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[٣].

وقال ابن تيمية رحمه الله: "وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف"[٤].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد ببطلان ماعند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[٥].

"وإنما كان الاختلاف علّة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقا شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها، ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها

---

(١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (١٠١/٩،١٠٢).

(٢) المصدر السابق (١٠٢/٩).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١١٦/١٩).

(٥) انظر: السنن الإلهية، د.عبدالكريم زيدان ص١٣٩.

وفي ذلك انقراضها وهلاكها"[1].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها. وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبدالكريم زيدان: "والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أنّ مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لايقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر إلى

(١) انظر: السنن الإلهية ص١٣٩.

انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول"(١).

٥- موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبعض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلابد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾(٢).

وقوله عزوجل: ﴿لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم...﴾(٤).

وقد أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الأمة في الولاء والبراء

---

(١) السنن الإلهية ص ص١٤٠،١٤١.

(٢) سورة المائدة :الآية ٥٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية: ٢٨.

(٤) سورة المجادلة : الآية ٢٢.

فقال: "أوثق عرى الإيمان الموالاة في اللـه والمعـاداة فـي اللـه، والحـب فـي اللـه والبغض في الله"[1].

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه – عزوجل : (من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب)[2].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلابـد أن تُـرى فيها سنة الله التي لاتتغير ولاتتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منـه الصلـح ويدفـع لـه المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل لـه أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلـس عامـة وللإسلام وأهله ولكنك لاتجني من الشوك العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتـى إن بعـض حكـام المسـلمين اسـتوزروا وزراء نصارى ويهود يصرّفـون أمـور دولـة الإسـلام فهـل يؤمـن الذئـب علـى الغنم!![3].

وهذا أبو عبدالله الصـغيـر سـلطـان غرناطـة الأخيـر يرسـل رسـالة إلـى ملـك الإسـبان يعتـذر فيهـا عمّا فعلـه أبـو عبداللـه الزغـل فـي إحـدى المعـارك ضـد النصـارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحوّل مسجدها الأعظم إلى كنيسة ردّه الله إلى أصله، أرسل أبو عبداللـه الصـغير إلـى ملـك النصـارى يهنئـه فـي ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمّه الزغل.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٤).

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب الرقائق رقم ٦٥٠١.

(٣) سقوط الأندلس ص٢٤.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناءً يذكر!:

وهل شكر النصارى لهذا، المتخاذل خذلانه لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقري - رحمه الله - : (ثم ارتحل السلطان أبو عبدالله إلى مدينة فاس - حرسها الله - ومازال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤّال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانع المانع لا إله إلا هو)(١).

٦- التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه)(٢).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبينان يشد بعضه بعضا"(٣).

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصرة ماتبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وانهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة وإليك ماحدث في طليطلة.

قال د. عبدالرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (٦٧،٦٨).

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب المظالم، رقم ٢٤٤٢ (١١٦/٥).

(٣) المصدر السابق، كتاب المظالم، رقم ٢٤٤٦، (١١٧/٥).

(قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف مايجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لاهمّ له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد)[١].

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي ٦٢٧-٦٥٥هـ، وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرض نصرانية تحارب الإسلام بكل ماتملك من أجل سحقه ومحيه من الوجود.

يقول المقري في نفح الطيب واصفاً استعداد النصارى لإحدى المعارك: "وجاء الطاغية دون بطء في جيش لايحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال مابقى من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك"[٢].

ويقول جوستاف لوبون في (حضارة العرب) إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية[٣].

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص٣٣٢.

(٢) نفح الطيب (٤٤٩/١، ٤٥٠) نقلاً عن سقوط الأندلس ص٤٥.

(٣) انظر: عوامل النصر والهزيمة ص١٢١.

كم جامع فيها أعيد كنيســـــة
فأهلك عليه أسىً ولا تتجلـــــد
أسفاً عليها أقفرت صلواتهـــا
من قانتين وراكعين وسجّــــد
كم من أسير عندهم وأسيـــرة
فكلاهما يبغي الفداء فما فــدى
كم من عقيلة معشرٍ معقـــولةٍ
فيهم تود لو أنها فــــــي ملَحْد
كم من تقيّ بالسلاسل موثـــق
يبكي لآخر في الكبول مقيّــــد
ضجّت ملائكة السماء لحالهـم
وبكى لهم مَن قلبه كالجلمـــــد
أفلا تذوب قلوبكم إخوانـــــا
مما دهانا من ردىً أو من ردى[1]
أفلا تراعون الأذمة بيننـــــا
مـــــــن حرمةٍ ومحبةٍ وتوددٍ
أكذا يعيث الروم في اخوانكم
وسيوفكـــــــــــم للثأر تتقلَّدِ
ياحسرتي لحمية الإسلام قــد
خمدت وكانت قبـــل ذلك توقد[2]

---

(١) انظر: سقوط الأندلس ص٤٦.

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٦٣).

٧- غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[١].

قال تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾[٢].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لايرقبون في مؤمن إلا ولاذمة وأولئك هم المعتدون﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾[٤].

لقد استمات النصارى في حروبهم مع المسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

---

(١) سقوط الأندلس ص٤٠.

(٢) سورة المائدة : الآية ١٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

٨- إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لاشك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على اثر ذلك عهد السنوات الصعاب كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..)[٢].

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها يقول د. عبدالرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: "وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُّلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيّعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته"[٣].

(١) سقوط الأندلس ص٣١.
(٢) مجموع رسائل ابن حزم (١٧٦/٣).
(٣) التاريخ الأندلسي ص٣٢٥.

٩- عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: (فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبتّ من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لانه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب"[(١)].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة، ودخلوا في معارك فرعية، وبالغوا فيها، فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة[(٢)] بالفقه المذهبي وفروعه، ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها" وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم - رحمه الله -:"ولايغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم" [(٣)].

١٠- الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

"ففي عام ٦٤٣هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني ص٩٥،٩٦.

(٢) سقوط الأندلس ص٣٥.

(٣) مجموع رسائل ابن حزم (١٧٣/٣).

باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيّان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجاز وقلعة جابر للنصارى"[1].

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادي الأولى عام ٦٤٥هـ، قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم وفي أوائل رمضان ٦٤٦هـ دخل فرناندوا الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة[2].ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حثــوا رواحلكم يا أهل أندلس
فمـــا المقام بها إلا من الغلط
السلـك يُنشر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف النجاة مع الحيات في سفط[3]

---

(١) نهاية الأندلس ص٤٣ نقلاً عن سقوط الأندلس ص٢٢.
(٢) انظر : سقوط الأندلس ص٢٢.
(٣) نفح الطيب (٣٥٢/٤) نقلاً عن سقوط الأندلس ص٤٩.

١١- سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية، وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين، وتأمين الخؤون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها، إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: (ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر"[١].

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام ٦٣٥هـ وعام ٨٩٣هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدم عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين ولذلك غلبة الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادئ والمثل والقيم[٢].

١٢- الثورات الداخلية في الأندلس: وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم

---

(١) التاريخ الأندلسي ص٣٦٨.

(٢) انظر: سقوط الأندلس ص٥١.

الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارى، ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون، والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية عام ٨٩٩م، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية واعلن عدائه للإسلام والمسلمين، وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبدالرحمن الثالث – الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات، وطالت مدته في الحكم "نصف قرن"، فكانت أول مدينة استسلمت له استجه، ثم لحقت بها مدينة البيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت "ارخدونة" أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبدالرحمن في ٩١٣م وأخضع "ريه" التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس ٣٧ عاماً، وحاصر طليطلة سنة ٩٣٢م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لايكلون ولايملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الرافضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس، وتستروا بالطرق الصوفية، وقاومهم عبدالرحمن الثالث، واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبدالرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس، ولكن لله في خلقه

شؤون [1].

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشفت مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين، والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كانت بؤرة للفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية، وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى، فأعمل في بعضهم السيف، ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد اثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي وغيرهم من ملوك القوط ولم تعطِ مخابرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين [2].

ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس :

١- إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة

---

(١) انظر: ابن عذارى (٤٧/١) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٢٦٢/٣ إلى ٢٦٧).

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣٤٦/٣). لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس، سقوط الأندلس،د. ناصر العمري، مصرع غرناطة، شوقي أبوخليل، عوامل النصر والهزيمة،شوقي أبوخليل، السنن الإلهية، د. عبدالكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د.عبدالرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

وضنكاً في الدنيا، وهلاكاً وعذاباً في الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم. قال تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم﴾[1].

٢- لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة، فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن، يحسب كل صيحة عليه يخشى النصارى ولايستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنك من العيش ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ (طه:٢٤) .

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد، وفقد الاحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[2] فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله صلى الله عليه

(١) سورة النور: الآية ٦٣.

(٢) سورة المائدة: الآيات ٧٨-٧٩.

وسلم: (كلا والله لتأْمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر ثم لتأْخُذُنَّ على يد الظالم ولتأطِرُنَّهُ على الحق أطراً، أو لتقْصرُنَّه على الحق قصراً أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم)[1].

٣- أن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾[2].

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله، وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم .

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت، ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا ما رحم الله، وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق، وفضحهم الله بذلك، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

٤- لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا

(١) أبو داود، كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف رقم ٤٦٧٠.

(٢) سورة الرعد، الآية ١١.

تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

٥-وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم سهلت مهمة النصارى في الأندلس، فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصّلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

٦- ان الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاض الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

٧- أن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لايعرفونه، ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على اعدائهم ثم خلصّ الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

٨- إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

- معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.
- كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق، واحتقار الناس، وظلم الضعفاء، ومحباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير مايرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وامراؤهم وأتقنوه اتقاناً عجيباً.

يقول الشاعر البسطي الأندلسي :

هذا جزاء مخالف مثلـــــي أبى

تقـــــوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس

وجهاً للقيــــا الله غير مسوّد

من ذا يتوب لربه من ذنبـــــه

أو يقتـــــــدي بنبيه أو يهتدي[1]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لأوفونس ملك النصارى:

"أما تعييرك للمسلمين فيما وهـن من أحوالهم فبالذنوب المركوبـة، ولـو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك"[2].

(١) انظر: سقوط الأندلس ص٦١.

(٢) التاريخ الأندلسي، د. عبدالرحمن الحجي، ص٣٣٧ نقلاً عن الحلل الموشية فـي ذكـر الاخبـار المراكشية ص٢٠-٢٣ كذلك الطوائف، محمد عبدالله غسان، ص٩٠-٩١.

المبحث الثاني

أولاً: دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مَغْراوَة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى، وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقى وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومرتية المنحرفة ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة.

أولاً- عبدالحق بن محيو المريني

كان عبدالحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[١] وقد مات عبدالحق سنة ٦١٤هـ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة (٦٤٢هـ)، وأبو بكر عبدالحق، مات سنة (٦٥٦هـ)، ويعقوب بن عبدالحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس[٢].

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٥٥).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٠).

ثانياً- المنهج الذي قامت عليه الدولة:

لاتستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام، لذلك من الطبيعي أن ترفعها دولة بني مرين لتثبت كونهم حماة الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين(١) أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية، وبأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين، وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا إن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس، وطلب العون منهم، وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع(٢). وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير

---

(١) من امثال عبدالفتاح الغنيمي، والدكتور أحمد مختار العبادي.

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٢٠٧).

تحالف بني زيان مع الموحدين، والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام ٦٤٠هـ /١٢٤٣م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص[١].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة، فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين .

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق، واستطاع أن ينظم القبائل العربية، ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سجلماسة للدولة في صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة. وفي عام ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم[٢].

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢٠٧/٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢١٩/٣،٢٢٠،٢٢١).

ثالثاً – حركة التوحيد للشمال الإفريقي :

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبدالواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (٧٣١/١٣٣١-٧٥٢هـ/١٣٥١م) وولده أبي عنان فارس (٧٥٢/١٣٥١م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م ثم أحسن إليهم، وفرض لهم العطاء، وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس، وعادت حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس، ودخل تونس في عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، لتمتد مملكته من مسراته في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس.

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان، وطلب الزعامة لنفسه، واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م، ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي، وأزال دولة بني زيان سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م وتابع سيره إلى إفريقية ودخل تونس في سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م الا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصا في فاس وطمع بعض اقربائه في السلطة جعله يعود إلى عاصمته، فوافاه الأجل في العام التالي[١].

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة ص١٤١.

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولت المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربيين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق، فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم.

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف، ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة ٨٦٩هـ/١٤٦٤م واقتصرت الدولة المرينية على فاس[١].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية. وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبدالحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (٨٢٣-٨٦٩هـ/١٣٢٠-١٤٦٥م) قرب اليهود من مقاليد الحكم، وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت احياء فاس كلها، واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبدالله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (٨٦٩هـ / ١٤٦٥م) وبذلك انتهت دولة بني مرين[٢].

رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين:

١- دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر ص١٤٢.

(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٣٣٦،٣٣٧).

بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبدالواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

٢- دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات، المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الإفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

٣- ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شؤونها، وتنازعت الأهواء والمصالح، فتولدت انفجارات داخلية ونزاع بين الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

٤- المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى الذين شنو حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار(١).

٥- تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك السبب في قيام الشعب بثورة ضد دلة بني مرين وإزالتها من الوجود.

٦- أجل الله في هذه الدولة، لأن الدول لها آجال لا تتعداها.

وغير ذلك من الأسباب.

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين ص١٤٢.

خامساً: الدولة الوطاسية :

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين، وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية، وأنزل بهم السلطان عبدالحق آخر سلطان الدولة المرينية نكبة عظيمة، ونكل بهم أشد تنكيل واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه.

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام ٨٦٨هـ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشا لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة، واحتل فاس عام ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده حيث استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ (٣٠ ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال ألفونس الخامس ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطسيون عن أراضٍ من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته[(١)].

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للإستيلاء على موانئ المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (١٤٩٢م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحوالمغرب، واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي

---

(١) انظر: موسوعة المغرب (٢٣/٣، ٢٤).

في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الاستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم، ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية، لكنها رفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ودّ الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرّروا الأراضي المحتلة وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام ٩٥٦هـ.

الا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام ٩٦١هـ وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد واسقط الدولة الوطاسية في نفس العام ٩٦١ هـ[١].

سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية :

١-دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغاليين

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٥٣).

من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم .

٢- عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

٣- ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها. وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

٤- الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانئ.

٥- التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة، بين المغاربة.

سابعاً: السعديون :

يرجع أصل السعديين من الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١] ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف بها خُصُومُها من الطعن في نسبها[٢]. وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، فيرى الأستاذ شوقي أبوخليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم انما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر[٣]

---

(١) انظر: وادي المخازن لشوقي أبو خليل ص٣١.

(٢) قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٢).

(٣) الظئر : المرضعة والعاطفة على غير ولدها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم[1]، ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: "وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند عن الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف"[2]. أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبدالفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبدالرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبدالله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبدالله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[3].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبدالله محمد القائم بأمر الله، وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من

---

(١) انظر: وادي المخازن لشوقي أبو خليل ص٣٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٢ نقلاً عن الاستقصاء (٥/٦).

(٣) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/١١٤،١١٥).

أراضي المغرب، وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة، وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣هـ، وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد الأعراج اكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (٩٣٠هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة (٩٤٠هـ) اتفق مع الوطّاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الإشراف السعديين من (تَادلـه)[١] إلى (السوس)، وللوطّاسيين من (تَادلة) إلى المغرب الأوسط.

وانتزع أبو عبدالله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (٩٦١هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة (٩٦٤هـ) وتولى زمام الأسور من بعده ابنه عبدالله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (٩٨١هـ)[٢] فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً، قتل اثنين من اخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر، فكرهته الرعية[٣] وصفه السلاوي بقوله: (وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبِّراً تيَّاهاً غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، عسوفاً على الرعية، ومن شعره قوله :

فقُمْ بنا نصطبح صهباء صافيةً

في وجْهِها عسجدٌ في وجهه نُقَطُ

---

(١) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢٠٤/٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: وادي المخازن ص٢٣.

وانهض إليها على رغمِ العِدا قلقاً
فإن تأخير أوقات الصِّبا غلط

ومن شعره أيضاً:

ساروا فسار فُؤادي إثــر ظعنهمُ
وخَلَّفوني نَحيلَ الجِسْم حَيْرانا
لا افتَرّ ثَغْرُ الثَّرى من بَعْدِ بَيْنِهِمُ
ولا سقى هاطلٌ ورداً وريحانا(١)

إلا إن هذا المتعجرف السَّفاك للدماء لم يهنـأ بملكـه حيث استطاع عمـه أبـو مـروان عبدالملـك، وأبـو العبـاس أحمـد أن يتحـالفوا مـع الأتـراك فـي الجزائـر، وسافر أبو مروان عبدالملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلـب مـن السلطان سليم نجدته ومعونتـه إلا أن السـلطان العثمـاني انشـغل بتخليـص تونـس مـن يـد الإسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا، واستطاعت أن تحرّر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني، وكان أبو مروان عبدالملك في تلك الحملـة وأبلـى فيها بلاء حسناً، ثم كان هو أوّل من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه علـى ذلك بـأن أمـر صـاحب الجزائـر بمده بـالجنود والعتـاد حتـى يرجـع إليـه حقــه المغصوب في الحكم(٢).

وما أن وصل جيش عبدالملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فـاس حتـى خرج إليه ابن اخيـه محمـد المتوكـل علـى اللـه واسـتطاع عبدالملـك أن يستميل القوّاد والوزراء فانقادوا إليه جميعـاً، وبـايع أهـل المغـرب عبدالملك بـن محمـد الشيخ سنة (٩٨٣).

---

(١) الاستقصاء (٥/٥٨) نقلاً عن وادي المخازن ص٣٤.

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٤).

ثامناً : من إصلاحات عبدالملك وأعماله :

١. أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامّة.

٢. اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

٣. أسسَّ جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

٤. استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

٥. فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوربيين، احترموه وأجلُّوه. قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة: "كان عبدالملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيِّراً بطبيعته، وكان يحسن اللُّغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والرُّوسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإنَّ معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنِّسبة لنبيل، فأحرى لملك"(١).

٦. اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكّان عامّة، وعلى اطلاع ودراية بالسِّياسة الدولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة(٢).

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٣٧.

(٢) المصدر السابق ص٣٩،٤٠.

تاسعاً: معركة وادي المخازن :

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبدالملك انتصاراهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: ٣٠ جمادي الثانية ٩٨٦هـ الموافق: ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨م.

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها:

١. أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب (١٥٢١-١٥٥٧م).

٢. أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان ابن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوربا، وزاد غروره بعد ماحققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، فخطط لغزو واحتلال المغرب[1].

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه العون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عمّيه

(١) انظر: وادي المخازن ص ٤٥،٤٦.

عبدالملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له عن موانئ وشواطئ المغرب "فشرط عليه أن يكون للنّصارى سائر السَّواحل، وله ماوراء ذلك"[1].

ا- حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطّليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[2].

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة واصيلا في عام ١٥٧٨.

٢- الجيش المغربي :

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: "أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله".

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبدالملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب ما استصرخت بالنّصارى[3] حتى عدمت النّصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: إنّه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه"، وتهدّدهم قائلاً: ﴿فإن لم تفعلوا، فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾[4].

---

(١) انظر: الاستقصاء (٦٩/٥) نقلاً عن وادي المخازن ص٤٦.

(٢) انظر: وادي المخازن ص٤٩.

(٣) سمي النصارى أهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصارى.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٧٩، انظر: وادي المخازن ص٥١.

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: (الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرِّضا عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحّته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشُّرفاء والعلماء والصُّلحاء والأجناد من أهل المغرب.

لو رجعت على نفسك اللّوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأمّا قولك: في النصارى فإنَّك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لايخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النُّصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهم غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلّهم على ضلال، وأن الحقَّ لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال عليه الصلاة والسّلام: إني لا أستعين بمشرك.. الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله..

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحميَّة الإيمانية، وتجدَّد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لادين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم،

ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قـائل يقـول: ﴿وليعلمـنَّ اللـه الذين آمنوا وليعلمن المنافقين..﴾[1].

وقد افتخرت في كتـابك بجمـوع الـرُّوم وقيـامهم معك، وعولـت علـى بلـوغ المُلك بحشودهم، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: ﴿ويأبى اللـه إلا أن يتـم نـوره ولو كره الكافرون﴾[2]. ولما عـاين أهل القصـر الكبـير النصـارى واستبطؤوا وصول السلطان عبدالملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبـال، فقـام الشـيخ أبـو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبدالملك المعتصم بالله من مراكش إلـى سبسـتيان: (إن سـطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن تقدم عليـك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب)[3]. فليس من الشـجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزّل، ولا ينتظـر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطـاب أثـر فـي غضـب سبسـتيان وقـرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشـه الذيـن أشـاروا عليـه بـالتقدم لاحتـلال تطـوان والعرايش والقصر[4].

وتحركت قوات عبدالملك المعتصم بالله، وسار أخـوه أحمد المنصـور بـأهل فاس وماحولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ١١٠.

(٢) الاستقصا (٧٩/٥) نقلاً عن وادي المخازن ص٥٣.

(٣) انظر: وادي المخازن ص٥٣.

(٤) انظر: وادي المخازن ص٥٤.

٣- قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):

■ الجيش البرتغالي :

١٢٥٠٠٠، ومايلزمهم من المعدات، والرواية الأوربية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن ١٤٠٠٠ راحل، و ٢٠٠٠ فارس، و٣٦ مدفعاً، مقابل : ٥٠٠٠٠ راجل في الجيش المغربي، و٢٢٠٠٠ ١٥٠٠ من الرماة، و٢٠ مدفعاً.

ذكر أبوالقاضي في (المنتقى المقصور: عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً)[١].

وقال أبوعبدالله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن):

أن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[٢].

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠٠٠٠ إسباني، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي.... وغيرهم عدد كبير... مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً... وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح مابين : ٣٠٠-٦٠٠ رجل على الأكثر[٣].

■ الجيش المغربي :

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوقاً في الخيل

---

(١) انظر: الاستقصا (٥/٦٩) نقلاً عن وادي المخازن ص٥٦.

(٢) انظر: الاستقصا (٥/٦٩) نقلاً عن وادي المخازن ص٥٦.

(٣) انظر: وادي المخازن ص٥٦.

ومدافعهم أربعة وثلاثـون مدفعاً فقط وكـانت معنويـاتهم مرتفعـة جداً للأسـباب التالية:

١- ذاقـوا حـلاوة الانتصـار علـى النصـارى المحتلين واسـتخلصوا مـن أيديهـم ثغوراً كثـيرة كـانت محاطـة بالأسـوار العاليـة، والحصـون المنيعـة، والخنـادق العميقة.

٢- التفاف الشعب حول القيادة، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن، لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسـلام وفاصلـة فـي تـاريخ المغرب وكان الشيخ أبوالمحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لايكـل ولايمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقاد هـذا الشـيخ (أبـو المحاسـن يوسـف الفاسي أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً، وثبت إلـى أن منـح اللـه المسـلمين النصـر، وركبـوا أكتـاف العـدو يقتلـون ويأسـرون، وتـورع أبوالمحاسن عـن الغنيمـة بعـد الانتصـار العظيم، وعـفَّ عنهـا، ولـم يـأخذ منهـا شيئاً[١].

وأظهـر عبدالملـك المعتصـم باللـه عبقريـة فذة فـي المعركـة وكذلـك أخـوه أبوالعباس أحمد الذهبي.

"لقد حنكت التجارب عبدالملك المعتصم بالله، فعزل عدوّه عن أسطوله بالشـاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندمـا اسـتدرج سبسـتيان إلـى مكـان حـدده عبدالملك ميداناً للمعركـة. وكـان عزلـه عـن أسـطوله محكمـاً عندمـا أمـر عبدالملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها"[٢].

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٥٨.

(٢) المصدر السابق ص٦٢.

لقد جعل عبدالملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوفاً للرماة المشاة وجعل قيادته في القلب، وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر[1].

كان صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م يوماً مشهود في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام. وقف السطان عبدالملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر[2] ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (الحج، آية:٤٠).

(ومالنصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم((الانفال، آية :١٠).

كما ذكرّ بوجوب الثبات:

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ (الأنفال، آية :١٥).

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ (الانفال: آية :٤٥).

وبضرورة الانتظام:

﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ (الصف، آية:٤).

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم

---

(١) انظر: وادي المخازن ص.

(٢) المصدر السابق ص٦٢.

للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[1].

ولم يأل القسسُ والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبة الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السطان عبدالملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وماهي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر)[2].

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٦٤.

(٢) الاستقصا (٥/٨٠) نقلاً عن وادي المخازن ص٦٦.

أثراً بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصُرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[١].

جاء في (درة السُّلوك) لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة "مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د ٤٢٨، ص١٤"[٢].

وابن أخيه[٣] بالنصارى اعتَصَمَا
وصـار يستنجدهم لـمن سَمَا
أجابه اللعينُ بستيـــــــــان[٤]
بجيشـــــه ومعـه الاوثان
وعدد الجيوشِ الـــــذي جَمعَا
ينيـف عــن مائة ألفٍ سُمِعَا
فقيض الله له المنصــــــورا[٥]
ملكاً شجـــاعاً أسَدَ هصورا
فخلص الإسلام من يَدِ اللعيــن
بصبره على لقاء المشركين

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٦٦،٦٧.
(٢) دعوة الحق السنة ١٩، العدد ٨، رمضان ١٣٩٨هـ،ص٥٦ نقلاً عن وادي المخازن ص٦٧.
(٣) اشارة إلى المتوكل.
(٤) بستيان (لضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان.
(٥) أحمد المنصـور ،أخو عبدالملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه، وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبدالملك الذي هيأ وخطط للمعركة.

مامنهم إلا قتيل وأسيـــــــــــر

في ساعة من الزّمان[1] ذا شهير

مات بها بستيان اللعيـــــــــن

فماله عـــــــــن الرّدى معين

ثم محمد[2] الذي أتى بــــــــه

مات غريقاً[3] يومــــــه فانتبِهِ

لحكمة الله العظيم القاهـــــــر

أفادهم وزيَّنَ المنابــــــــــــر

بذكر عمّه أبي العبـــــــــــاس

الحازم الرَّأي شديـــــد الباسِ

نجلُ الرسول المصطفى المختار

به زها المغربُ على الأقطار[4]

عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

١- القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبدالملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال، أبي علي القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

---

(١) اشارة إلى قصر مدة المعركة.

(٢) محمد المتوكل المسلوخ.

(٣) في نهر وادي المخازن.

(٤) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

٢- التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادتـه بسبب الشيخ أبـي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

٣- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل علـى تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصـارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين الذين تحت حكمهم في الأندلس.

٤- اشتراك خبراء مـن العثمـانيين تميزوا بالمهـارة فـي الرمـي بالمدفعيـة وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعـل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

٥- الخطة المحكمة التي رسمها عبدالملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميـدان تجـول فيـه الخيـل وتصـول، مـع قطـع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

٦- القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبدالملك وأخيه أحمـد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما لـه أثر أشـد فـي أتباعهم من قولهم.

٧- تفـوق القـوات المغربيـة بـالخيل حيـث اسـتطاع الفرسـان أن يسـتثمروا النصر، ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيـل المسـلمين الخفيفـة الحركـة من أي فرصة في الفرار.

٨- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشـورة مستشـاريه وكبـار رجـال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

٩- وعـي الشـعب المغربـي المسـلم بخطـورة الغــزو النصرانــي البرتغــالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد[١].

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٧٢،٧٣،٧٤،٧٥.

١٠- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم.

وغير ذلك من الأسباب.

الحادي عشر: نتائج المعركة :

١- أصبح سلطان المغرب بعد عبدالملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة للهجرة.

٢- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، في زمن السلطان مراد خان الثالث، والى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

٣- ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبة تخطب ودّها واضطر ملك البرتغال الجديد "الرِّيكي" أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة.

ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة(١).

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور)(٢).

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٧٠.

(٢) الاستقصاء (٩٢/٥) نقلاً عن وادي المخازن ص٧٠.

٤- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفاً نتائج المعركة:

"وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الاعصار، العصر، الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين- لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب"(١).

٥- مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد، عبدالملك المعتصم بالله.

٦- سارع البرتغاليون النصارى بفكاك اسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

٧- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

٨- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوروبا حيث رأو أهمية اتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب(٢).

---

(١) الاستقصا (٥/٨٥-٨٦) نقلاً عن وادي المخازن ص٧١.

(٢) انظر: وادي المخازن ص٧٦.

الثاني عشر – السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م.

أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة[١].

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز: (فاس، ومراكش بتارودانت.....).

ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

أ- من أشهر شيوخه :

١- أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

٢- شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

٣- أبو زكريا يحيى السراج.

٤- محمد بن يوسف الدرعي.

٥- سليمان بن إبراهيم .

٦- موسى الروداني[٢].

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٣٧ نقلاً عن الاستقصا (١٣٦/٥).

(٢) انظر: وادي المخازن ص٣٨.

ب- من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

١- "المعارف في كل ماتحتاج الخلائق" يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الاسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الاستراتيجي القتالي.

٢- مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ماتركناه صدقة)[١].

٣- كتابات أدبية وشعرية متميزية، تظهر فيها المحسنات البديعية أحياناً[٢].

وصفه السلاوي فقال: (نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة[٣] لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره[٤]. كان طويل القامة ممتلئ الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج[٥] براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل)[٦].

ج- إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ماوصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

---

(١) حاول ان يزيح بعض الاشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.
(٢) انظر: وادي المخازن ص٣٨.
(٣) ثافن الرجل : لازمه حتى عرف باطن أمره.
(٤) أي: طفولته.
(٥) البلج : تباعد مابين الحاجبين.
(٦) انظر: وادي المخازن ص٣٩.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروفاً لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لايعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنيين ١١و١٢هـ (١٦و١٧م) فقال :"في الوقت الذي كانت أوروبة في العصر السَّعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ماكان يدعى بقضاء المظالم"(١).

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم واهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يحرسها جنود مقيمون لايبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كليومتراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

---

(١) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن ص٤١.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس المـلاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قـانوني للبـلاد، إلا أنه لايستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله.

وكـان مجلس الديـوان مـن المرونـة وسـعة الأفـق بحيـث يسـمح بدخـول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندمـا يقتضـي الأمـر استشـارات على نطاق شعبي واسع[١].

وطور السلطان أحمد المنصور جيـش دولتـه، واقتـدى بالنظـام العثمـاني فـي التسليح والرُتب واللباس، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عاليـة واثبتت الأيام أنه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات، إبراهيـم بـن محمـد السُّفياني قائد الجبهة الإمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمـري المعقلي.

ودعّم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم، وأقام مستشفيات متنقلـة ميدانيـة تسـتقبل الجرحـى والمرضــى فـي الحـروب، واهتـم بتـأهيل التقنييـن المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصاً في مينائي العرائش وسلا[٢].

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنـوب وضـم بـلاد السـودان الغربـي إلـى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهـب سياسـية متمـيزة، واسـتطاع أن يحقـق الأمـن والازدهــار والرفـاه

---

(١) انظر: وادي المخازن ص٤٢،٤٣.

(٢) المصدر السابق ص٤٤.

والخصب لبلاده[1].

د- انهيار الدولة السّعدية:

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

١- الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.

٢- ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وانشغل الأمراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

٣- دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع كل إمارة على حساب الأخرى ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها.

٤- ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

٥- تولى الزعامة السعدية أبوالعباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والانهيار حيث لايزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام

---

(١) انظر: تاريخ عصر النهضة الاوروبية،د.نور الدين حسام ص٤٥٦،٤٥٧،٤٥٨.

١٠٦٩هـ/١٦٥٨م وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد، وبايعوا إبراهيم عبدالكريم زعيم القبيلة وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة، لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي في هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية، وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام ١٠٧٥هـ-١٤١٢هـ وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولاتزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا[١].

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٣٤٨).

المبحث الثالث

بنو عبدالواد (بنو زيان)

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين، انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم وترجع اصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبدالواد[(١)].

وكان بنو عبدالواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي، ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبدالواد في سواحل المغرب الأوسط، واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد، وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبدالواد يَغُمرْ اسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعلياً، وحكم زعيم بني عبدالواد ما يقارب الخمسين سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م-٦٨١هـ/١٢٨٢م) كان يغمر اسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر، وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

---

(١) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/٢٣٤).

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبدالواد الذين هزموا في عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م أمام الضربات المرينية قرب وجدة، ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كاملاً، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى[١].

وكان من سعد بني عبدالواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بني عبدالواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بني عبدالواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبدالواد وألحقوا بهم هزائم في عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م.

وكان بنو عبدالواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد الخطب وتنكسر حشودهم، وتنهزم قواتهم امام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبدالواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني، فيناصرون فريقاً على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبدالواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي، وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م إلا أن تلك

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ص١٣٤.

الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبدالواد للانهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[1]:

١- ظهور الزعيم يغمر اسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه: (كان يغمر اسن بن زيان من أشد بني عبدالواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك أثارة قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الألة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء)[2].

٢- حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

٣- حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

٤- اسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ص١٣٦.

(٢) ابن خلدون في تاريخه (٧/٧٩).

الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.

٥- الاهتمام بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين إفريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار ما يحملوه من إفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين مايحمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت ما تحصله من رسوم فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

٦- اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء حتى ان يحيى ابن خلدون (ت ٧٨٠هـ) وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣هـ/١٣٥٢م-٧٩١هـ/١٣٨٩م) وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه: (نظم السلوك في سياسة الملوك) ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال(١).

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبدالرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان، والمقري مؤلف نفح الطيب كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق(٢).

---

(١) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ص١٣٦.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، د.أحمد شبلي (٢٥٢/٤).

ب- التنظيم الإداري في عهد بني عبدالواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى :

١- السلطة العسكريه ويتولاها صاحب السيف.

٢- السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم.

٣- السلطةالقضائية ويتولاها قاضي القضاة.

٤- السلطة المالية ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤولي السلطات السابقة شخص يطلق علية (مزاول) ولة حق الإشراف على كل هؤلاء وهو مايعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب[١].

ج- أسباب السقوط لبني عبدالواد:

١- النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

٢- قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبدالعزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

٣- ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

٤- مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م ثم استيلاؤهم على وهران ٩١٤هـ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية[٢]، وعجز بنو

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شبلي (٢٥٢،٢٥٣).

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/٨٧٥).

عبدالواد في التصدي لهم.

٥- ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خيرالدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان، وانتهى الأمر بزوال دولتي بني زيان في عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الإسبان(١). وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بني عبدالواد، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة وفي أواخر رمضان سنة ٩١٥هـ/١٥١١م اقتحم النصارى الإسبان اسوار (بجاية) وحطموا الجامع الاعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة(٢).

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء اخوانهم في العقيدة والدين الذين جاؤوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي.

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/٨٧٥).

(٢) انظر: قادة فتح المغرب العربي (٢/٢٣٥).

المبحث الرابع

الدولة الحفصية

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر بن الخطاب كابن نخيل، الذي يعتبر اول كاتب لديوان الدولة الحفصية[1].

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبوحفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبدالمؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالإمام، وعبدالمؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[2].

وبلغ من احترام عبدالمؤمن له، وحسن تقديره اياه ان كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وإفريقية.

---

(١) ابن خلدون، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (١/٣٧٤).

(٢) انظر: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ص٢٢٠.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور[1] أسند إلى أبي محمد عبدالواحد ابن أبي حفص الهنتاتي أمر إفريقية، وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها، ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب.

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي، أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية[2].

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبدالواحد الحفصي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م[3].

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبدالواحد الحفصي على الانفصال، منها:

١- انهيار دولة عبدالمؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة ١٢١٢م.

٢- رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م لتعاليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة .

٣- قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص١٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق ص١٨٠.

ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

فاستغل أبوزكريا عبدالواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبدالمؤمن والاستقلال بولايته، واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وان كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان(١).

واستطاع أبوزكريا بن عبدالواحد أن يشكل إمارة في تونس، وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسطينة وبجاية ودخل تلمسان واتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى، وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين(٢)، ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية، وإلى الأمير أبي زكريا عبدالواحد وجه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الابار القضاعي بين يدي امير الحفصيين منشداً قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقري انها فضحت من باراها وكبا دونها من جاراها(٣) وهي:

أدرك بخيلك خيل اللـــه أنْدلُســـا

إن السبيل إلى مَنْجاتها درســـــا

(١) انظر: دراسات في المغرب والأندلس للعبادي ص١٨٠.

(٢) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٧.

(٣) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١٢٠/٣).

وهَبْ لها من عزيز النصـر ماالتمست

فلـم يزل منك عزٌّ النصر مُلتَمسا

وحاشى مما تُعانيه حُشاحشتَهـــــــا

فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

ياللجزيرة أصبح أهلها جـــــــزراً

للحادثات وأمسى جدُّها تَعســـا

في كل شارقة إلمام بائقـــــــــة

يعود مأتمها عند العدا عرســـــا

وكل غاربة إحجاف نائبــــــــة

تثني الامان حذراً والسرور اسـى

تقاسم الروم لانالت مقاسمهــــــم

إلا عقائلها المحجوبة الانســــا

وفي بلنسية منها وقرطبــــــــة

ما ينسف النفس اوما ينزف النفسا

مدائن حلها الاشراك مبتـــــسماً

جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسـا

وصيرتها القوادي العائثات بهـــا

يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسـا

فمن دساكر كانت دونها حـــرساً

ومن كنائس كانت قبلها كنســا

ياللمساجد عادت للعــــدى بيَعاً

وللنداء غدا اثنائها جَرسَـــــا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتهـــا

مدارساً للمثاني أصبحت دُرُســا

واربُعاً نمنمت ايدي الربيع لهــــــا

ما شئــت من خلَع مَوْشيةٍ وكُسا

كانت حدائق للأحــــــداق مـــونقةً

فصوّح النّصـــر من لدواحها وعســـى

وحال ما حولها من منظر عجـــــب

يستجلس الركب أو يستركب الجلســا

سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا

غيـث الدّبا في مغانيها التي كبسا

وابتز بزتـــــــــها مما تحيفهــــــا

تحيف الاسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بهــــــــا خضراً

وأين عصر جَليناهُ بها سلســــــا

محا محاسنها طاغ اتيح لهـــــــا

ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورَجَّ أرجاءها لما أحاط بهـــــــا

فغادر الشُمَّ من أعلامها خُنســــا

خلا له الجوُّ فامتدت يداه إلـــــى

إداركِ مالم تطأ رجلاه مختلســــا

وأكثر الزعم بالتثليث منفــــــرداً

ولـــو رأى راية التوحيد ما نَبسَـا

صِلْ حبالها أيها المولى الرحيم فما

أبقى المِرَاسُ لها حبلاً ولامرسا

الى ان قال:

طهر بلادك منهم إنهـــــم نجسٌ

ولا طهــارة مالم تغسل النَّجســا

وأوطئ الفيلق الجرار ارضهــــم

حتى يطأطــيء رأساً كل من رأساً

وانصُر عبداً بأقصى شَرقِها شرقت

عيونهـم أدمُعاً تهمي زكاً وَخَسا

هم شيعة الأمر وهي الدارُ قد نهكت

داءً مالــم تباشر حَسْمَه انتكسَـــا

فاملأ هِنئاً لك التأييد ساحتهـــــــا

جرداً سَلاهِبَ أو خطيَّـــةً دعساً

واضرب لها موعدا بالفتـــــــــح

ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى[1]

ولقد لبى السلطان الحفصي النداء، وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة، إلا أن تلك الاغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين[2].

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس(٣/١٢٠،١٢١،١٢٢).

(٢) المصدر السابق (٣/١٢٢).

وفتح أبوزكريا أبواب إفريقيـة للهجـرة الأندلسـية وبلـغ التـأثير الأندلسـي فـي الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبدالله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيـى، وكان من أعظم حكام دولة الحفصيين، وكان بلاطه يزخر بـأهل الأندلس الذيـن هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبدالواحد السياسية حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في إفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقاً إلى مدينة الجزائر غرباً، وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب[1].

ب- ولاية العهد:

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفـراد مـن الأسـرة الحاكمـة. وفي عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عين الأمير أبوزكريا ابنه على ولاية بجاية وحول لـه معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبـي زكريـا لابنـه مليئـة بـالنصح والإرشـاد، ومما جعل فـي وصيته قبل موته في عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م:

١- (المحافظـة علـى إقامـة شـعائر الإسـلام فـي اتبـاع أوامـر اللـه واجتنـاب نواهيه.

٢- تفقده للجيش وحسـن معاملتـه لأفـراده حسـب درجـاتهم، فـلا يلحـق السـفيه بالكبير، فيجرئ السفيه عليه، ويفسد نيـة الكبير، فيكـون إحسـانه مفسـدة لـه فـي

(١) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٨.

كلا الوجهين.

٣- أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات، لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

٤- أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جميعاً، فإن في تعدد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

٥- عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم، ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولايقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

٦- أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لانهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

٧- أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متماد في غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.

أما الحسود فعليه أن لايقيل عثرته، لأن في إقالته مايشجعه على القول، والقول يدفعه إلى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليحسم داءه قبل انتشاره ويتدارك امره قبل إظهاره.

٨- عليه أن يزهد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا، وينال بها مرضاة الله في الآخرة)[١].

---

(١) ابن خلدون تاريخ الدول (١/٤٠٦-٤٠٨).

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبوعبدالله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي اعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦هـ، وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين ٦٥٧هـ/١٢٥٩م وبايعه شريف مكة بالخلافة(١).

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة، كالأصل العربي، والنسب النبوي، وإلى جانبهم قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب(٢)، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش، وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة(٣).

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قـــوم أبو حفص أب لهم

وما أدراك والفاروق هو أول(٤)

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص١٢٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص١٢٤.

(٣) نفس المصدر السابق ص١٢٤.

(٤) نفس المصدر السابق ص١٢٤.

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية، وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى يقول السلاوي الناصري: "ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً لمرضاتهم، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم..."(١) واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة.

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الإفريقي عاصمتها تونس، وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية ومن أهم تلك الأهداف السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والإخشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب "خدام الحرمين"(٢).

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨-٦٧٦هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر واستطاع ان يهزم المغول عند الحدود العراقية، والصليبين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً

---

(١) انظر: السلاوي (الاستقصا (٣/٢٨-٢٩) نقلاً عن العبادي دراسات.

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٧.

للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته، لهذا عمد إلى احياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء، وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً، ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية، وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف، وأرسل كسوة الكعبة، وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب....إلخ ثم أدى بيبرس فريضة الحج، وظهر منه خشوع وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة إلا أنه بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها[1].

استطاع المستنصر أبوعبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء، وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوروبا، واهتم بعاصمة الدولة، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص١٢٧.

نفسه[1].

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية، واستولوا على تونس عدة مرات[2] وأصبح الشمال الإفريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية، لدى انسحاب المرينيين، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٧٢هـ/١٣٧٠-٧٩٦هـ/١٣٩٤م، واستطاع أن يقف أمام هجوم من النصارى على المهدية سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م، فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها، وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، وعلى بسكرة سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م.

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر وتوفي أبو فارس سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهراً ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب اطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا أن أبا عمر استطاع ان يقضي على هذه الثورات سنة

(١) المُغرب في تاريخ المغرب ص١٢٨.

(٢) عام ١٣٤٦،١٣٥٠،١٣٥٧م نقلاً عن العبادي دراسات ص١٢٩.

٨٥٠هـ/١٤٤٦م ويهزم عمه أبا الحسن[١].

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا، وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

وكنـــــا أسوداً والرجال تهابنا

فجاء زمان فيه نخشى الأرانبا[٢]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام ٩٧٦هـ/١٥٦٨م[٣].

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م[٤].

طرابلس والدولة الحفصية:

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس، ومن

---

(١) المغرب الكبير (٨٧٩/٢).

(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣٠٥/٤).

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) انظر: المُغرب في تاريخ المغرب ص١٣٢.

أمرائهم على طرابلس أبوعبدالرحمن يعقوب الهرغي، وعبدالله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاتي، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح، وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبدالله محمد (٦٤٧-٦٦٥هـ) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للاسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة ٧١١هـ، ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها، واحتل تونس، وجعل ابنه أبوضربة عليها، ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس[١].

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبوبكر سنة ٨١٨هـ الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر[٢].

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي ص٣٤٢.

(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣٧٨/٤).

د- طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص:

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم آل لهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤هـ وظلوا يحكمونها -بدون استقرار- حتى قبيل غزو الإسبان لها[١].

ومن ولاة بني ثابت:

- ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤هـ
- محمد بن ثابت ٧٣٠هـ

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنوحفص سنة ٧٤٨هـ[٢].

- ثابت بن محمد بن ثابت الثاني ٧٥٠هـ

استطاع تجار جنوة أن يخدعوا الطرابلسين ويحتلوا المدينة في عام ٧٥٥هـ وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلي جنوة، فتدخل بنو مكي وهم من البربر، ونسبهم في لواته بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ماعنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس، وبعد مامكث الجنويين حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٣٧٩/٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو أخوانه في العقيدة(١).

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبوعنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفى عام ٧٦٦هـ.

وتولى ابنه عبدالرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيىء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر ووقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبدالرحمن بن مكي، وعمل أبوبكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص، واعترف لهم بالولاء(٢).

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة ٧٩٢هـ ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران بن محمد بن ثابت، واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين، وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا إنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر، واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس، ويقبضوا على واليها علي بن عمران. وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر، ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر، وعين عليها رجلاً من قبله يثق فيه، وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها(٣)، بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة(٤).

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٥٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٣٥٥.

(٤) المصدر السابق نفسه ص٣٤٦.

وتولى المنصور محمد بن عبدالعزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٨٣٣هـ.

ثم تولى ولاية طرابلس عبدالواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروط:

١- أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

٢- أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء .

٣- أن يتخذ من الجند لنفسه مايريد.

وافق الأمير عبدالعزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبدالواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال، وبقي والياً إلى أن توفي ٨٥٨هـ وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة كانت أيام رغد وهناءة على أهل طرابلس(١).

هـ- ثورة بني غراب :

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس، فسجنه ثم قتله.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب وقام رجل يقال له منصور أصلح بين المتخاصمين، وهدأت الفتنة، واختار الطرابلسيون الشيخ منصور وهو

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٥٧.

الذي سعى في الإصلاح والياً عليهم بدلا من الحاكم الحفصي أبي بكر وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة ومسلاّته وبني وليد وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام ٨٨٥هـ وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة. وتوفي عام ٨٩٨هـ واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبدالله بن شرف فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً للولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء، ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد، ودام حكم الشيخ عبدالله بن شرف نحو ١٨ سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات(١).

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبدالواحد بن حفص سنة ٨٣٣هـ – إلى أن احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة، ووقعوا في الترف الذي افسد عزائمهم، وأخلاقهم، وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم(٢) . وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مئة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة الآف من

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص٣٥٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٦٠.

الإيطاليين والمالطيين. وفي ٨ من ربيع سنة ٩١٦هـ تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر، سنة ٩١٦هـ، الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠م وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس، ولم تكن القوات متكافئة، وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض، وسبيت النساء، وقتل الرجال، وديست المقدسات، واستمر الإفساد الإسباني في البلاد مايقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسور المدينة، ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ ١٥٥١م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرّروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العلية ودورها في العالم الإسلامي عموما والشمال الإفريقي خصوصاً.

أسباب سقوط الدولة الحفصية :

١- اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظّر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدية التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي. فأصبح الولاء ضعيفا للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

٢- الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

٣- استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحيانا الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، واحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية .

٤- استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوربيين عموماً فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

٥- ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

٦- تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم، ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم، فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

٧- كان سقوط الدولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه بسبب التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى .

الخلاصة

١- يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة.

٢- يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج.

٣- لم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.

٤- يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفه لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السنة بالابتداع .

٥- أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة أصلاحية، لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الأصلاح التي جاءت في الكتاب والسنة بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الإفريقي.

٦- كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والأساليب لتحقيقها.

٧- ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

٨- تزعم عبدالمؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الإفريقي.

٩- ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبدالمؤمن بن علي تمثلت في إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.

١٠-لم يلتزم عبدالمؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً وانما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية، ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة كما حدث عندما ألغى نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها، ويعتبر ذلك تكتيكاً من عبدالمؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت .

١١-تولى أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن عام ٥٥٨هـ بعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه، واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في ٥٦٣هـ وكان أبو يعقوب مولع بحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل.

١٢-عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة، واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم، وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام ٥٦٧هـ.

١٣-اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام ٥٥٩هـ وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام ٥٦٣هـ.

١٤-قامت في المغرب في قفصة في عام ٥٧٥هـ ثورة ضد الموحدين بقيادة علي بن المعز بن المعتز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام ٥٧٦هـ.

١٥-عجز يوسف بن عبدالمؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس، لعدة أسباب منها، نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية، وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصاً على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين.

١٦-توفى السلطان يوسف في ٥٨٠هـ ودفن في تينملل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي.

١٧-تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه، فقام بالامر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس

على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

١٨-صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين .

١٩-عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الإفريقي كله.

٢٠-عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارى في الأندلس.

٢١-استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في الأندلس في معركة الأرك عام ٥٩١هـ وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي من أهمها، ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقوط هيبة ملوك النصارى.

٢٢-نستطيع ان نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووحد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، واسند المهمام إلى أهلها....الخ.

٢٣-طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد النصارى في المشرق إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في

المشرق تحت قيادة صلاح الدين.

٢٤-توفى السلطان يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السنة والجماعة.

٢٥-تولى أبو محمد عبدالله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام ٥٩٥هـ واستطاع ان يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى، وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصارى في الأندلس وانهزم في معركة العقاب عام ٦٠٩هـ أمام الجحافل النصرانية ثم رجع إلى المغرب وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماً عام ٦١٠هـ.

٢٦-بعد هزيمة العقاب توغل النصارى في مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك للأعراض وسبي النساء، ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس.

٢٧-تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان صغر سن الخليفة وقلة خبرته واعجابه بنفسه وتسلط الوزير ابن جامع عليه سبباً في هزيمة العقاب.

٢٨-لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها، هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي، والانهيار العسكري الذي أصاب القوات الموحدية، وانكماش العقيدة التومرية في نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثة.

٢٩-بعد زوال دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات من أهمها: دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبدالواد في المغرب الأوسط، وبني حفص في المغرب الأدنى.

٣٠-كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها امام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها، موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ماتملك، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت اليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في إدارة الصراع العسكري والسياسي.

٣١-ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في معركة قرب استاجة وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني تمثلت في أمور منها، إهتمامه بعنصر الاستطلاع، إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة، خطبته المؤثرة في جنوده، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

٣٢-كانت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر يعتريها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارى إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

٣٣-كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة، ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا انهم عوضوا نقصهم

بالإيمان وصحة اللجوء إلى الله، فأنزل الله نصره عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم في عام ٧١٩هـ وكان عدد الملوك والأمراء القتلى اكثر من عشرين، والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفاً.

٣٤-كانت موقعة طريف في عام ٧٤١هـ والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم امام النصارى لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي، ووالد لسان الدين الخطيب.

٣٥-اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من أجل احتلال غرناطة في عام ٨٨٧هـ واستطاع أبوعبدالله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه وباشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا أنه وقع أسيراً بيد النصارى عام ٨٨٨هـ.

٣٦-استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبدالله الصغير وأطلق سراحه في الوقت الحرج الذي زاد من الصراع الداخلي في غرناطة بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة.

٣٧-في عام ٨٩٧هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

٣٨-كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب ولقد ارتكبت في حق المسلمين ماتقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله

الولدان.

٣٩-حاول المستضعفون من المسلمين أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دونت في هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة.

٤٠-كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس من أهمها، تفكك وحدة الشمال الإفريقي، الانغماس في الشهوات، والركون إلى الدعة والترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة، غدر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات.

٤١-لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكيم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

٤٢-زالت دولة الموحدين من الوجود عام ٦٦٨هـ واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الأقصى بنو مرين.

٤٣-حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام ٨٦٩هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الأندلس .

٤٤-من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين؛ دسائس ملوك الإسبان، وتحالف

غرناطة معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولى الحكم بعض الأمراء الضعاف، الخطر الخارجي من البرتغال على موانيء الدولة، وغير ذلك من الأسباب.

٤٥-بعد سنتين من تولي أبي عبدالله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م.

٤٦-استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام ٩٥٦هـ وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها: دخول الوطاسيين في معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي، فالتف الشعب حولهم.

٤٧- استطاع الأمير أبو مروان عبدالملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعدوه على تخليص المغرب من ابن اخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام ٩٨٣هـ.

٤٨-كان السلطان عبدالملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية.

٤٩-حقق السعديون بقيادة السلطان عبدالملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارى في معركة وادي المخاز ن في عام ٩٨٦هـ وتجلت عبقرية السلطان عبدالملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.

٥٠-استشهد السلطان عبدالملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد

المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.

٥١-كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها، أدبية وشعرية وحديثية ومن أشهر كتبه المعارف في كل ما تحتاج الخلائق.

٥٢-استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته اشواطاً نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.

٥٣-بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي، وانفصلت عن كيانها مجموعة من الإمارات والولايات، وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانات العربية في عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م، وازالوا نهائياً الأسرة السعدية.

٥٤-لم تستطع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام ١٠٧٥هـ/١٤١٢م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولاتزال أسرة الأشراف العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصى.

٥٥-حكم المغرب الأوسط بنو عبدالواد بعد زاول دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون، وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية في عام ٩١٥هـ/١٥١١م وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م على يد الفاتحين العثمانيين.

٥٦-حكم إفريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص

وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام ٩٧٦هـ/١٥٦٨م على يد العثمانيين.

٥٧-سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان في عام ٩١٦هـ ثم سلمت إلى فرسان الدين يوحنا في عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

أهم مراجع البحث

١. ابن جزي ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

٢. ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت-لبنان.

٣. أعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥م.

٤. ابن ماجه للإمام أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبدالباقي، دار التراث العربي.

٥. أشراط الساعة للوابل، يوسف عبدالله الوابل، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ،١٩٩١م، دار ابن الجوزي.

٦. إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي.

٧. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط٣،١٩٨٣م.

٨. المغرب الكبير، د. السيد عبدالعزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٩. البيذق أخبار المهدي ابن تومرت، أبوبكر الصنهاجي، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨م.

١٠. الدعوة الموحدية بالمغرب، عبدالله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

١١. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣م.

١٢. النهاية، الفتن والملاحم، للحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.
١٣. المنار المنيف لابن القيم، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٣٩٠هـ.
١٤. النبوة والأنبياء، لمحمد علي الصابوني.
١٥. الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة أبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
١٦. الحموية، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية.
١٧. أخبار المهدي، تحقيق عبدالحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ.
١٨. الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعزالدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٩م.
١٩. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.
٢٠. ابن صاحب الصلاة، عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
٢١. الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق، د.علي أحمد، دار شمال دمشق، ١٩٩٥م.
٢٢. النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري الآتابكي،

وزارة الثقافة والارشاد القومي في مصر.
٢٣. المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
٢٤. التكملة، لكتاب الصلة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبَّار.
٢٥. العقاب، شوقي أبوخليل، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.
٢٦. الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٢٧. السنن الإلهية، د. عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
٢٨. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.
٢٩. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.
٣٠. الأعلام للزركلي، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.
٣١. الإمام مالك بن أنس، عبدالغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
٣٢. الآرَك، د. شوقي أبوخليل، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
٣٣. الاستقصأ لأخبار دول المغرب الأقصى: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.
٣٤. الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

٣٥. الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، سليمان بن عبدالله الباروني النفوسي، مطبعة الأزهار البارونية.
٣٦. الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق، سنة ١٤٠١هـ.
٣٧. بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة من البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ د.أحمد فكري ١٦-٢٠ اكتوبر ١٩٧٦م شباب الجامعة.
٣٨. تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة عشر ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
٣٩. تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.
٤٠. تاريخ عصر النهضة الأوروبية، د. نور الدين حسام، دار الفكر، طبعة ١٩٦٨م.
٤١. تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع.
٤٢. تاريخ الأندلس، عبدالرحمن الحجي، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٤٣. تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبدالمنعم محمد حسين، مؤسسة شباب الجامعة، طبعة ١٩٨٦م.
٤٤. تجربة الأصلاح في حركة ابن تومرت، د. عبدالمجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٤٥. تفسير الرازي للامام الفخر الرازي.

٤٦. تفسير القرطبي لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.
٤٧. تفسير الألوسي، روح المعاني للإمام الألوسي.
٤٨. البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.
٤٩. دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبدالحليم عويس، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
٥٠. دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.
٥١. دعوة الحق، السنة ١٩، العدد ٨، رمضان ١٣٩٨هـ.
٥٢. ديوان التحقيق والمحاكمات لمحمد عبدالله عنان .
٥٣. دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عزالدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ،١٩٨٣م.
٥٤. دولة المرابطين، سلامة محمد سلمان الهرفي، دار الندوة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٥٥. دائرة المعارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، مطابع دائرة المعارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة ١٣٤٣هـ.
٥٦. رحلة ابن جبير، أبوالحسن محمد بن أحمد، دار صادر ودار بيروت ١٩٦٤.
٥٧. تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباخ، ترجمة محمد عبدالله عنان، القاهرة، ١٩٥٨م.
٥٨. تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست.

٥٩. درء تعارض العقل والنقل الإمام شيخ الإسلام أحمد عبدالحليم ابن تيمية.
٦٠. روض القرطاس، لأبي الحسن علي بن عبدالله، الانيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.
٦١. سقوط الأندلس، د.ناصر العمري، مؤسسة الموتمن، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٦٢. سقوط غرناطة، شوقي أبوخليل، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨١م.
٦٣. سقوط دولة الموحدين، د. امراجع عقيلة الغناكي، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨ منشورات جامعة قاريونس.
٦٤. سير أعلام النبلاء، للامام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
٦٥. سنن أبي داود للامام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.
٦٦. شذرات الذهب في اخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، المسمى ابن العماد (ت١٠٨٩).
٦٧. صحيح البخاري، للامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦هـ.
٦٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار احياء التراث.
٦٩. صحيح الجامع للألباني، تحقيق، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
٧٠. صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
٧١. صلاح الدين بطل حطين، عبدالله علوان، دار السلام، القاهرة،الطبعة

السادسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٧٢. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبدالله عنان، القاهرة، ١٩٦٤م.
٧٣. عقيدة أهل السنة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر، للشيخ عبدالمحسن ابن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
٧٤. عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، حسن مؤنس.
٧٥. عقائد الإمامية، لمحمد رضا ظافر.
٧٦. عوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٧٧. غرناطة في ظل بني الأحمر، د.يوسف شكري فرحات، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
٧٨. فقه التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي.
٧٩. فتح الباري، شرح صحيح البخاري، للامام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.
٨٠. فتاوى ابن تيمية، لأبي العباس، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، جمع وترتيب، عبدالرحمن بن محمد قاسم.
٨١. قيام دولة المرابطين، لحسن أحمد محمود القاهرة، ١٩٥٧م.
٨٢. قادة فتح بلاد المغرب، محمد شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٨٣. موسوعة التاريخ الإسلامي، د.أحمد شبلي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥م.

٨٤. مجموعة رسائل ابن حزم.
٨٥. موسوعة المغرب العربي للغينمي، عبدالفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٨٦. مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبدالعزيز، مكة ١٩٧٩م لم تطبع.
٨٧. معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م.
٨٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح وتحقيق أحمد شاكر، أتمه د.عبدالحسين عبدالمجيد هاشم، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.
٨٩. مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا.
٩٠. الأغالبة سياستهم الخارجية، محمود اسماعيل.
٩١. مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، مجلة محكمة.
٩٢. نظم الجمان في أخبار الزمان لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.
٩٣. نظم المتناثر في الحديث المتواتر، للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ.
٩٤. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقري، تحقيق، د. إحسان عباس.
٩٥. وادي المخازن، لشوقي أبو خليل دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
٩٦. وفيات الأعيان لابن خلكان، شمس الدين، أبو العباس بن خلكان، دار صادر بيروت، حققه احسان عباس.

المحتويات

صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي ٥



تأليف
علي محمد محمد الصلابي

دار البيارق

علي محمد محمد الصلاّبي

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.
- تحصل على درجة الاجازة العالية "الليسانس" من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز وكان الأول على دفعته عام ١٤١٣/١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٢/١٩٩٣م .
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن في السودان عام ١٣٩٠هـ - ١٩٩٦م.
- صدرت له عدة كتب:

١- ملامح الوسطية في القرآن الكريم.

٢- وسطية القرآن في العقائد.

٣- وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع .

٤- من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

٥- صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي.

٦- صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي
عصر الدولتين الاموية والعباسية وظهور فكر الخوارج

٧- صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي
الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية

٨- صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي
فقه التمكين عند دولة المرابطين

دولة الموحدين

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٩٨/٣/٢٩٢)

رقـــــم التصنيـــف : ٩٥٦٫٠٦٥٢٤

المؤلف ومن هو في حكمه : علي محمد محمد الصلابي

عنـــوان الكتـــــاب : صفحات من التاريخ الاسلامي (دولة الموحدين) جـ٥

الموضـــوع الـــرئيسي : ١- التاريخ

٢- التاريخ الاسلامي في شمال افريقيا عصر الموحدين

بيـــانـــات النشـــــر : عمان : دار البيارق للنشر

*- تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية